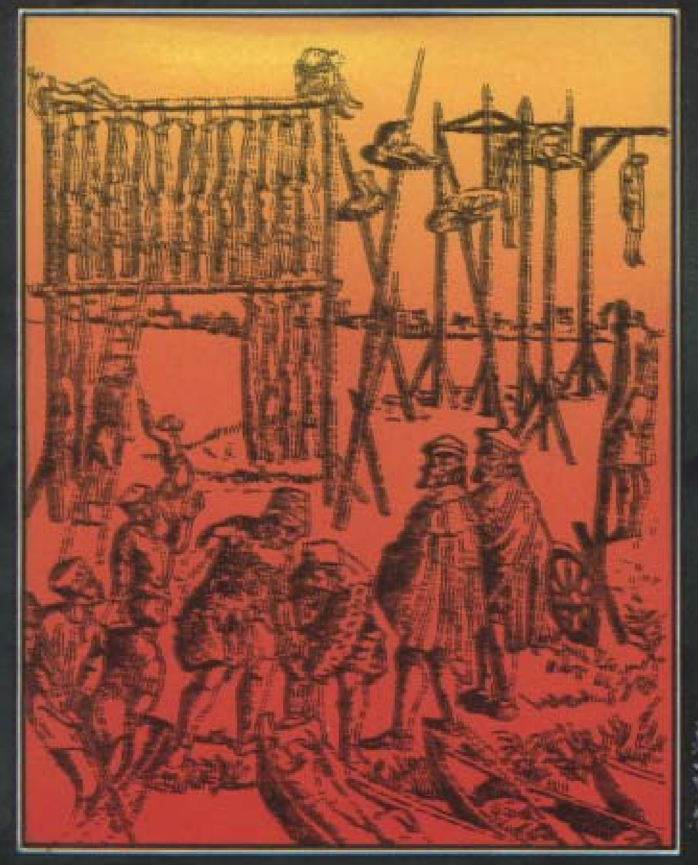
دكتور علي مظهر

محاكم التفتيش

في إسبانيا والبرتغال وغيرها

وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين

بالفردوس الإسلامي المفقود "الأندلس"



المكتبة العلمية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أما بعد: فيشاء ربك أن تقدم أصول هذا الكتاب للطبع وتستيقظ بعد سبات عميق أتت عليه أزمان طويلة وسنين ملأى بالحوادث والفواجع والآلام، تبدلت فيها الأوضاع وتغيرت الأحوال. فكأنما انقلب الإنسان وحشاً ضارياً يروي ظمأه من بحار الدماء، ويشبع شرهه بممزق الأشلاء. فخربت المدن، وهدمت الديار، وفنيت ألوف الألوف من الإنسان بأظفار ومخالب أخيه الإنسان.

ولكنها شنشنة نعرفها من أخزم. فمنذ وجد آدم وحواء وأولادهما والقتل لم يفل صارمه، والناس غرقى في بحار الدماء. وأقرب الشواهد على ذلك الحرب العالمية الماضية التي قلبت فيها الأوضاع البشرية وتجلت فيها الوحشية، وانمحت فيها مقومات الإنسانية، وحلّت فيها المصائب والأرزاء على البرية، فنرجو الله لنا ولكم الهداية والعافية إنه سميع مجيب.

مصر الجديدة في يوم

١٣ صفر سنة ١٣٦٦

الموافق ٦ يناير سنة ١٩٤٧

دكتور علي مظهر

١ ـ مقدمة

بدأ تفكيرنا في كتابة تاريخ كاف لمحاكم التفتيش منذ سنين عديدة. وكان مقصدنا من ذلك أن يكون جزءاً من أجزاء كتاب جامع لأخبار المسلمين في أوروبا الغربية منذ وطئت أقدامهم أرض جزيرة الأندلس وزحفوا عليها وعلى ما جاورها من البلاد، حتى كانوا بالقرب من «تور» بفرنسا، وعلى بعد ثلاث ساعات تقريباً بالقطار من باريس اليوم.

وقد كتبت كثيراً من صفحات هذا الكتاب أثناء وجودي بالاسكندرية في العام الماضي، وكتبت بعضاً منه بالقاهرة، وألقي جزء كبير مما كتب على دفعتين بصفة محاضرة أو مسامرات موضحة بالصور والرسوم، فظهرت بمعونة الفانوس الكهربائي السحري، بنادي الشبان المسلمين بالقاهرة، خلال شتاء سنة ١٩٢٩. وقد أضيفت أشياء ومعلومات إلى الصفحات التي خططناها أثناء وجودنا بالفيوم، رأينا من المستحسن إضافتها إلى الكتاب، ليكون وافياً بعض الوفاء للمطلع الذي يريد الإلمام بأخبار تلك الفواجع المؤلمة، التي تمّت على يد رجال المحاكم التفتيشية، وعلى يد رجال الديوان الجهنمي المقدس!!

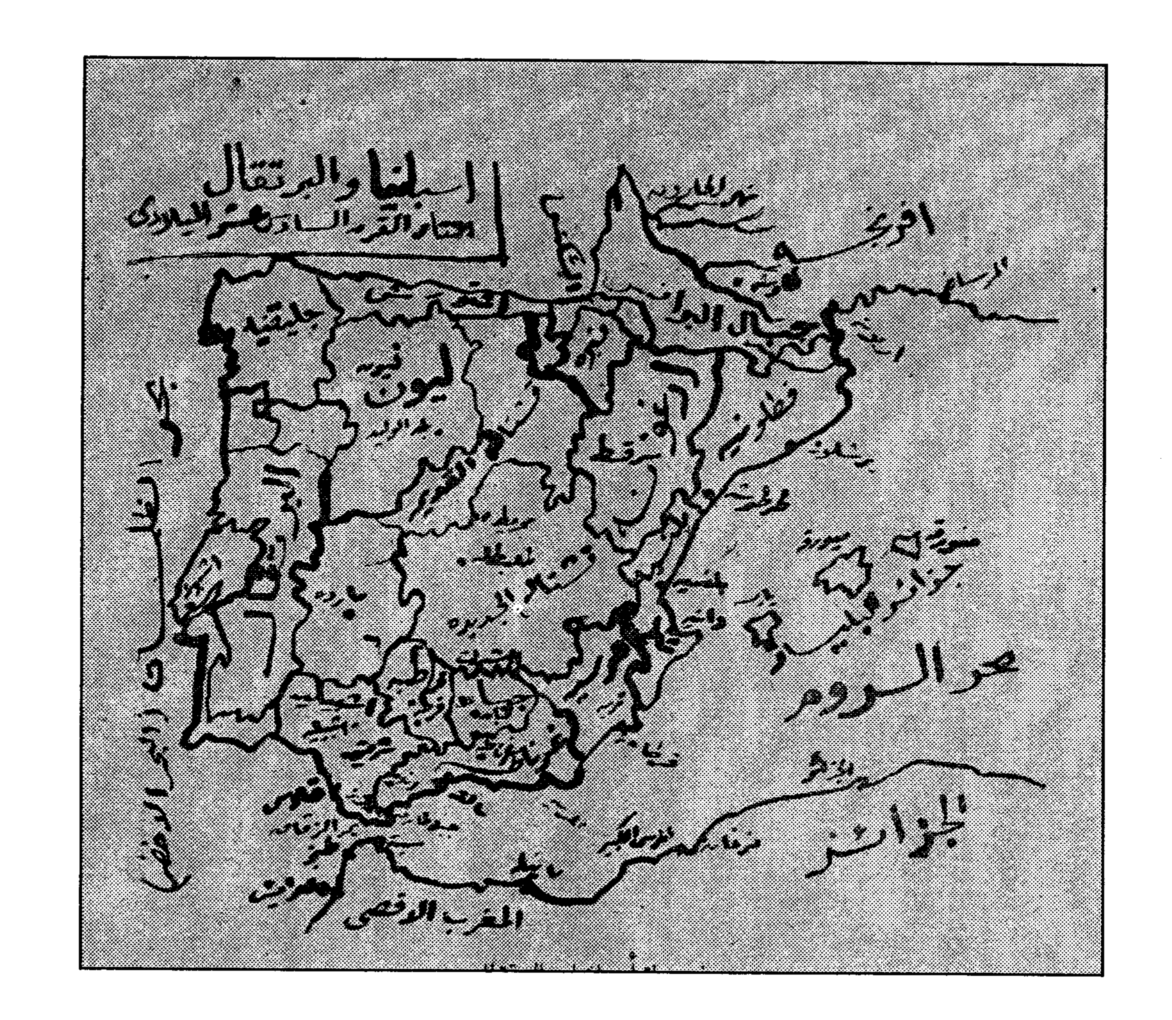
وسيكون هذا الكتيب حلقة في سلسلة الكتب الذي كتبنا شيئاً منه عن الفردوس الإسلامي المفقود. ونعني بذلك: الأندلس نسأل الله المعونة على إتمامه.

وكان العزم أن نظهر الكتاب كله دفعة واحدة بين دفتين. ولكننا رأينا أن نظهره في أجزاء، كل جزء على حدة. إذا أضيفت الأجزاء كلها إلى بعضها كوّنت ذلك الكتاب المنشود الذي أشرنا إليه في أول هذه المقدمة.

والآن وقد أتينا على جلّ ما أمكننا ذكره وتدوينه في هذا الموضوع، فنسأل الله أن تكون الفائدة منه على قدر ما قصدنا إليه من كتابته ونشره.

صدر عن الفيوم في يوم الخميس الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هجرية. الموافق للحادي عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية.

علي مظهر


اسبانيا والبرتغال
افرنجة
جليقية
ليون
بحر الروم
الجزائر
المغرب الاقصى
بحر الظلمات (البحر الاخضر)

من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة

تمّ للعرب فتح شمال إفريقية أيام الدولة الأموية، ثم عبروا إلى أرض إسبانيا أيام الوليد بن عبد الملك فاتحين سنة ٩٢ هـ، بقيادة طارق بن زياد. ثم ذهب إليها موسى بن نصير، وتمّ فتح جلّ شبه جزيرة ايبريا. وتوالت على تلك البلاد المفتوحة الولاة من قِبَل بني أمية، وخطب باسمهم في جوامعها حتى انتهى أمر الأمويين بالمشرق سنة ١٣٢ هـ وفي أيام عبد العزيز بن موسى ابن نصير وفد الناس والقبائل من الشام والعراق ومصر وغيرها على جزيرة إيبريا، فأنزل كل جماعة وقبيل منهم جهة من جهات الأندلس الخصبة. ونهض السمح بن مالك ـ أحد ولاة الأندلس ـ ففتح جنوب فرنسا، ومات وهو على حصاره لمدينة طلوشة (تولوز). ثم نذكر عنبسة بن سحيم الذي غزا قرقشونة، ونيم، وغيرها في جنوب فرنسا. أما عبد الرحمن الغافقي فإنه سار إلى أرل، ثم سار إلى بوردو فاستولى عليها. ثم استولى على ليون وبيزانسون عنوة. ثم فتح تور. وفي مكان بينها وبين پواتييه كانت الواقعة التي ارتدّ منها المسلمون للتكالب على الأسلاب والغنائم وحدث اضطراب في جيوش الغافقي أمام جيش يقوده شارل مارتل (قارله)وعبثاً ذهبت جهود القائد العربي لتثبيتهم، وخرّ قتيلاً في تلك الموقعة. فارتدّت فلولهم عن أرض فرنسا جنوباً، واستقروا في إسبانيا.

ومن الغريب في أمر أولئك الأمراء أنهم لم يطهروا بقايا القوط والنيبريين (النافاريين) وغيرهم الذين لجأوا إلى سكنى القسم الشمالي، وعلى الأخص الغربي منه. وكانوا سبب أحداث وفتن واضطرابات في البلاد المفتوحة. ثم

قوي أمرهم فيما بعد حتى أمكنهم طرد المسلمين من ذلك الفردوس المفقود.

ولا تسل عما كان يقوم من الاضطرابات والثورات الداخلية في البلاد التي فتحها المسلمون في إسبانيا والبرتغال[1]، ولما كان من حروب داخلية لا تنقطع بين القبائل المضرية واليمنية، أو بين الشامية والمصرية، أو بين البربر والمولدين، أو بين جملة عناصر منهم ضد آخرين، وقتل في تلك الاضطرابات آلاف من المسلمين، وكثير من أمرائهم وقادتهم.

واستمر تعيين الولاة من قِبَل بني أمية بالمشرق إلى سنة ١٣٢ هـ إذ غلبوا على أمرهم وتولى الخلافة بنو العباس، وأمعنوا في بني أمية قتلاً. ففرّ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، ودخلها سنة ١٣٨هـ وعرف بعبد الرحمن الداخل، فكان أميراً ذا آمال كبار، وتمّ له أن أصبح أمير البلاد، عوضاً عن أمرائها من قِبَل العباسيين. وسار إلى قرطبة واستولى عليها، وبايعته البلاد أميراً، وشاد ملكاً لبني أمية بالمغرب في بلاد الأندلس.

وكان يدعو أولاً للخليفة المنصور العباسي، ويخطب باسمه على المنابر، وكان المنصور يسميه بصقر قريش. فلما توطّد سلطانه قطع الدعوة له وأسقط اسمه من الخطبة، واستمر في الحكم إلى أن مات سنة ١٧٣ هـ فتولى الإمارة بعده ابنه هشام. وتتابع ولاة بني أمية على إسبانيا والبرتغال إلى أن انتهى أمرهم سنة ٤٢٨ هـ.

وحدث في أيام عبد الرحمن الناصر في سنة ٣١٧ هـ أن أعلن خلافته في الأندلس بمنشور أرسله إلى جميع الجهات، وتسمى بأمير المؤمنين وضربت باسمه السكة (النقود). وعرف من جاء بعده من بني أمية باسم الخليفة.

وقد استبحر بالأندلس العمران أيام بني أمية ونشطت الحركة الفكرية

(١) وردت في الأصل في جميع المواضع في هذا الكتاب «البرتقال» بالقاف بدل الغين، وهو تعبير صحيح كان يستعمل في المصادر العربية القديمة؛ ولكننا غيرناه إلى «البرتغال» لأنه الشائع الآن.

وكثر العلماء والشعراء والأدباء، وكانت لحكومتهم قوة مرهوبة حتى انتهى أمر البلاد إلى تفرّق الجماعة وانقسامها، وذلك بسبب استكثار الأمويين في الأندلس من البربر الذين شايعوهم وساعدوهم على بني العباس، واستكثارهم من شراء المماليك الصقالبة والأتراك وغيرهم، سيّما في أيام عبد الرحمن الناصر، حتى أصبحت لهم الكلمة النافذة في البلاد، وانتقل إلى أيديهم حكمها الفعلي. وهنا ننقل كلمة لمحمد بك لبيب البتانوني في كتابه رحلة الأندلس (الطبعة الأولى ص ١٢٠) إذ يقول:

«. . . وكانت نفوس كثير منهم تتحدث في قرارتها بتخطي الرقاب، وطرق كل باب للوصول إلى منصة الحكم، ولم يكن يقعد بهم عنها إلا ما كان يحيطها من رمح مشروع، وسيف مسلول، وعظمة قائمة، وسلطان قدمه في الأرض ورأسه في السماء. وعلى كل حال فقد كان لهم التصرف المطلق في داخلية الدولة وخالف الأمويون في الأندلس آباءهم في دمشق في محافظتهم على عصبيتهم العربية، فضعفت بذلك شوكة العرب ونقموا على حكومتهم. وما زالوا يترقّبون الفرصة للخروج عليها، حتى قام ابن أبي عامر وزير الحاكم بن الناصر. وكان من العرب المنتصرين لعصبيتهم. فأخذ بدهائه في التفرقة بين العناصر المتغلبة، من صقالبة وأتراك وبربر، ثم بالايقاع بهم شيئاً فشيئاً. وكان في أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من زناتة ومصمودة وغيرهم. وكان يوليهم مناصب الدولة، حتى إذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهم أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون بأطرافها».

وأول من بدأ منهم بالاستقلال: بنو عباد، في إشبيلية، ثم بنو زيري في غرناطة، وبنو الأفطس في بطليوس، ثم بنو ذي النون في طليطلة، ثم بنو عامر في بلنسية، ثم بنو هود في سرقسطة، وبقيت قرطبة في يدي بني حمود، ثم بني جهور. وما زالوا حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال. ثم المرابطون من الجنوب.

وأخذ ملوك أو أمراء الطوائف يغير الواحد منهم على ما بيد الآخر طمعاً. فكان ذلك سبباً في ضعفهم، حتى اضطروا إلى دفع الجزية إلى الأدفونش، ولاقوا من مسيحيي الاسبان الذل والهوان، وصغر أمرهم. وضاقت صدورهم من غدر ملوك الاسبان وأمرائهم وسوء معاملتهم، فرأوا استدعاء المرابطين من المغرب لنجدتهم. وكان صاحب هذ الرأي هو ابن عباد صاحب إشبيلية.

فَهَمَّ يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين بالمغرب لنجدة مسلمي الأندلس، وعبر إلى الجزيرة سنة ٤٤٩ هـ بجيوشه الجرارة بقيادة قائده الكبير داود بن عائشة. وتقابلت جيوش المرابطين بجيوش مسيحيي الاسبان قرب بطليوس. وكان يرأس كبر ذلك الجيش الاسباني الادفونش (الفونسو) ملك قشتالة. فكانت موقعة هائلة انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً، وعرفت بواقعة الزلاقة وهرب الادفونش وهو جريح في يده جرحاً بليغاً. ثم اصطلح الفريقان ورفع ظلم الاسبان عن مسلمي الأندلس. ولم يدفعوا لهم الجزية المعتادة كل سنة، وتسمى يوسف بن تاشفين بعد واقعة الزلاقة باسم أمير المسلمين. وقد غنم المسلمون الشيء الكثير جداً من الأموال والأنفس في هذه الموقعة فتركه ابن تاشفين كله لأهل البلاد، وترك الأندلس عائداً إلى بلاده.

ثم عاد إليها سنة ٤٦٨ هـ مرة أخرى وأجاز إلى الأندلس، لأن أهلها شكوا إليه من كثرة المكوس (الضرائب) التي كان ملوك الطوائف يأخذونها منهم. فخافه أولئك الملوك الصغار واتفقوا مع ملوك وأمراء المسيحيين الاسبان عليه، ومنعوا جيوشه من أخذ الميرة والعلف وما يلزمها. ولكنه استولى على بلادهم كلها، وأصبحت كل بلاد الأندلس تحت ولايته إلا سرقسطة، فقد بقيت لبعدها في يد بني هود. ومن ثم أصبحت البلاد في يد المرابطين وبقيت في أيديهم حتى زالت دولتهم في أواخر القرن الخامس الهجري، وقامت مكانها دولة الموحدين. وقد أرسل أمير المؤمنين عبد

المؤمن بن علي إلى الأندلس جيشاً للفتح، فتغلب على الجزء الغربي منها. ثم حاصر المرية، فاستغاث أهلها بالادفونش فأرسل خليفته محمد بن مردنيش على رأس جيش خليط من المسيحيين والمسلمين فهزمه عبد المؤمن، وتمّ استيلاء الموحدين على الأندلس أيام ابنه يوسف أمير المؤمنين. فأصلح وشيّد بإشبيلية العمائر، وبنى جامعها وأقام جسرها.

واستمر ابنه المنصور من بعده مصلحاً. وقد حارب المنصور يعقوب جيوش الادفونش وجموعه من ملوك وأمراء النصرانية، فانتصر عليهم انتصارات باهرة في واقعة الكرك الشهيرة Alarcos وصار يفتح الحصون والبلاد مما كان في أيديهم. وتقدم فاتحاً، فطلبوا إليه عقد الصلح، فصالحهم على خمس سنين وكان ذلك في سنة ٥٩٢ هـ.

وكانت غنائم المسلمين شيئاً كثيراً عدا من قتلوهم في تلك المعارك، حتى قيل إنهم بلغوا مائة ألف قتيل. وباع المسلمون الأسير بدرهم لكثرتهم، والسيف بنصف درهم والحمار بدرهم والفرس بخمسة دراهم. ثم استولى المنصور بعد ذلك على طلمنكة. ثم قصد طليطلة عاصمة الادفونش وحاصرها. وكاد ينزل من فيها على إرادته، ولكن والدة الادفونش وبناته وحرمه نزلن واستغثن بالمنصور وبمروءته، فأكرم مثواهن وأعادهن إلى مقرهن معزّزات مكرّمات، وعاد هو إلى بلاده بالغنائم العظيمة.

قارن تلك المعاملة وما فعله مسيحيو الاسبان بنساء المسلمين وبناتهم وأطفالهم وشيوخهم من الاضطهاد والتعذيب والتحريق.

ثم مات المنصور يعقوب سنة ٥٩٥ هـ. فتولى ابنه أبو عبد الله محمد الناصر بعده، فذهب إلى الأندلس سنة ٦٠٩ هـ. بجيوش قدرها البعض بستمائة ألف مقاتل.

وأعجبت الناصر كثرة جيوشه، فأساء معاملة أهل البلاد الأندلسية. وفتك بكثير منهم بإيعاز من وزيره ابن جامع، الذي أراد أن تكون له وحده

الكلمة العليا، فخسر عطف الأهلين العارفين بمسالك البلاد ومخابئها. وأعلن البابا الحرب المقدسة الصليبية ضد جيوش المسلمين. فهرعت جيوش النصرانية من ايطاليا وفرنسا وألمانيا واتحدت قواتها في إسبانيا مع مسيحيي الاسبان، واستعدوا للقاء الناصر في سهول نافادو وتولوزا ـ وهي قرية تبعد عن شمال قرطبة مائة وأربعين كيلومتراً ـ ويعرفها المسلمون باسم العقاب، لكثرة ما فيها من عقبات كانت سبباً في خذلانهم وانتصار جيوش النصارى المتحدة عليهم انتصاراً باهراً، وتمزّقت جيوش الناصر المتخاذلة مع أهالي البلاد.

ومات الناصر عقب موقعة العقاب هذه فبايع أهل المغرب ولده يحيى. فلجأ المأمون ابن الناصر إلى ملك قشتالة يستنصره على أخيه يحيى وعلى قومه الموحدين. فتمّ الاتفاق معه على شروط، منها أن يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما في يد المسلمين مما يلي بلاده. وأن تبنى لهم كنيسة في مراكش وقبل المأمون. فجهز له ملك قشتالة جيشاً من الاسبان دخل به أرض المغرب، وهناك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً. وكان عددهم نيفاً وأربعة آلاف نفس. وثارت الأطراف عليه، وضعف أمر الموحدين.

فأخذ الاسبان في الاستيلاء على قرطبة ثم على جزء البليار، وبلنسية، واستولى أسطولهم على سبتة وغيرها من سواحل المغرب. ثم استولوا على إشبيلية، وما زالوا يستولون على بلاد الأندلس وحصونه واحداً بعد واحد، حتى لم يبق في يد المسلمين غير غرناطة بقيت في يد بني الأحمر لمنعتها وكثرة أهلها، فقد كان يلجأ إليها جلّ أهالي البلاد التي يفتحها الاسبان. وكانت غرناطة تدفع الجزية غالباً لملوك قشتالة.

واستولى بنو مرين على المغرب فكان بنو الأحمر يساعدون الاسبان عليهم، وكان بنو مرين يتّحدون أحياناً مع ملوك قشتالة على بني الأحمر. واستمر ملك بني الأحمر قائماً بغرناطة إلى أن دبَّ الخلاف على الملك بين

أبي عبد الله بن أبي الحسن وبين عمه الزغَل فانتهى بتغلب الاسبان على غرناطة سنة ٨٩٢ هـ (سنة ١٤٩٢ ميلادية) وكان ذلك نهاية أمر المسلمين بالأندلس.

ويحسن بنا أن نشير إلى أن المسلمين كانوا يذكرون اسم الادفونش في حديثهم عن الأندلس، ولم يكن هٰذا شخصاً واحداً، بل كان لقباً لكثير من ملوك الاسبان. وكان أشهرهم الفونس (ادفونش) السادس ملك قشتالة وليون واشتوريا، الذي استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ ميلادية. وجعلها عاصمة ملكه. وبعدها أخذ يستولي على أطراف بلاد المسلمين حتى أصبح له النصف الشمالي لإسبانيا، المعروفة باسم قشتالة الجديدة، وقد كسر يوسف بن تاشفين جيوشه في واقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ميلادية. ومات سنة ١١٠٩ م.

أما الفونس الثامن ملك أراغون فهو الذي كان له شأن يذكر مع ملوك الطوائف وجيوش الموحدين. وقد انتصرت عليه وعلى جيوشه جيوش يعقوب ابن عبد المؤمن في موقعة الكرك سنة ١١٩٥ ومات سنة ١٢١٤ م بعد انتصاره بجيوشه المتحدة مع جيوش النصرانية المتحدة على محمد الناصر في واقعة العقاب المشار إليها آنفاً.

وكان الفونس أمير البرتغال هو الذي استولى على الاشبونة وشنتارين من المسلمين وانتخب بعدها ملكاً على البرتغال.

وفرديناند الثالث ملك قشتالة المسمى بسان فرديناند (القديس فرديناند) هو الذي أخذ قرطبة من المسلمين سنة ١٢٣٦ م ثم استولى على إشبيلية سنة ١٢٤٩ م.

أما فرديناند الثاني ملك نبرّة (نافارا) واراغون فتزوج بايزابلا ملكة قشتالة وفتحا متعاونين غرناطة وأخذاها من المسلمين سنة ١٤٩٢ م وأخرج منها من أخرج وعذب فيها وفي غيرها من عذب من بقايا المسلمين.

وسبب ذلك تخاذلهم وانقسامهم بعضهم على بعض حتى استقلّ ببلاد الدولة الإسلامية هناك عشرون والياً في البلاد الآتية: اشبيلية، جيان، سرقسطة، الثغر، (ما كان في شمال طليطلة) طليطلة، غرناطة، قرمونة، الجزيرة الخضراء، مرسية، بلنسية، دانية، طرطوشة، لارده، باجة، المرية مالقة، بطليوس، الاشبونة، جزر البليار، قرطبة.

وينسب لابن حزم قوله: فضيحة لم يأت الدهر بمثلها، أربعة رجال. يسمى كل واحد منهم أمير المؤمنين، واحد بإشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة. وأصبح العرب والبربر في خلاف مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى، وفي حروب مع الأمم الاسبانية والبرتغالية.

ثم آل أمر هذه الدول إلى خمس: سرقسطة وما والاها شرقاً إلى البحر في يد ابن هود. وطليطلة وما والاها شمالاً وجنوباً في يد ابن ذي النون، وإشبيلية وما والاها جنوباً في يد ابن عباد، وبطليوس وما والاها غرباً في يد ابن الأفطس. وآلت قرطبة إلى يد الوزير ابن جهور، ثم دخلت في حكم ابن عباد.

بذلك الانقسام والتخاذل ثم استرسالهم في ملاذهم واستسلامهم لشهواتهم واستنامتهم إلى الراحة؛ ضعفت فيهم الحمية الدينية والعصبية القومية حتى ضعفت قواهم فكان جزاؤهم ان فقدوا ذلك الفردوس البديع: بلاد الأندلس الخصيبة.

بنو الأحمر

ويحسن بنا أن نجمل سيرة بني الأحمر أو بني نصر، فقد كانوا من صميم العرب الأنصار، الذين ذهبوا إلى الأندلس ويتصل نسبهم بسعد بن عبادة من الخزرج. وأصبحوا من جند أرجونة من حصون قرطبة، وكان كبيرهم في أواخر أيام الموحدين هو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بالشيخ وحين ضعف أمر الموحدين قام محمد بن هود بمرسية واستولى على شرق الأندلس فتصدى له محمد بن الأحمر وتغلب على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ. وما زال حتى غلب عليه الادفونش فاستصرخ محمد بن الأحمر يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب المريني فأرسل إليه جيشاً دفع به الاسبان، ثم مات محمد بن يوسف هذا سنة ٦٧١ هـ وقام بالأمر بعده ابنه محمد المعروف بالفقيه فاستولى على جنوب إسبانيا حتى الجزيرة الخضراء. وأصبح ذا السلطان عليها حتى مات سنة ٧٠١ هـ. وهو من خيرة بني الأحمر سياسة وهمة، وتولى بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع، ثم أخوه أبو الجيوش نصر، ثم أبو الوليد ابن أبي سعيد بن اسماعيل بن نصر، وكان بعيد الهمة حسن السيرة شديد القوة عظيم السلطان، وقتل عام ٧٢٧ هـ غدراً بيد أحد أقاربه في داره، فتولى بعده محمد بن أبي سعيد، وهذا مات مقتولاً أيضاً سنة ٧٣٢ هـ فتولى الأمر بعده أخوه أبو الحجاج يوسف، وقد مات الآخر قتيلاً سنة ٧٥٥ هـ. طعنه رجل سوقي، وكان من خيرة بني الأحمر، فخلفه ابنه محمد، فاستبد به حاجبه رضوان وحجبه عن الناس، فثار أخوه اسماعيل بن يوسف وقتل رضواناً ونفى أخاه محمداً إلى المغرب، ثم تولى الملك سنة ٧٦٠ هـ. فقام أبو يحيى من أولاد عمومته وقتله، واستولى على الملك، ولكنه لم يلبث أن عاد إليه محمد

ابن يوسف بمساعدة بني مرين باتفاقهم مع ملك قشتالة. وتلقب بالغني بالله. وقويت شوكته وتوطّد سلطانه وبالأخص حين اختلف ملوك إسبانيا وأمراؤها مع بعضهم البعض. وبذلك أمكن للغني بالله أن يسترجع كثيراً من البلاد التي استولى عليها الاسبان أيام أسلافه.

والغني بالله هو الذي استوزر لسان الدين ابن الخطيب صاحب المؤلفات القيمة من «نفح الطيب» وغيره، وقد أبلى الوزير بلاء حسناً في خدمة السلطان وصحبه في نفيه إلى المغرب، ثم قتله الغني بالله أخيراً لوشاية فيه.

وقد وفد ابن خلدون العلامة المغربي على الغني بالله سنة ٧٦٣ هـ. وأقام في خدمته، وكثيراً ما كان يستعمله في السفارات بينه وبين ملك الاسبان باشبيلية. ونجح ابن خلدون فيما عهد إليه به من السفارات. وأقام في خدمة الغني بالله ثلاثة أعوام، واستقال من عمله خشية السعايات والوشايات، وترك الأندلس إلى المغرب ثم مصر أيام الظاهر برقوق.

وتولى الأمر بعد الغني بالله ابنه يوسف ثم سعد بن يوسف، ثم أبو الحسن بن سعد وكان ميالاً للهو ضعيف الرأي لا يهتم بأمور الدولة وهو والد أبي عبد الله محمد من السيدة ثريا محظيته الاسبانية على ما يقال. وقيل بل من زوجته عائشة، وكانت ثريا هذه سبب الفشل الكبير في الأسرة المالكة لتفريقها بين الأخ وأخيه، وبين الوالد وأبيه. فساعد ذلك على زوال ملكهم.

وكان أبو الحسن يهيم بحب ثريا. وكان له ولدان من عائشة زوجه الأخرى، هما محمد ويوسف، فكان يقدم ابن الاسبانية ثريا، فهرب محمد ويوسف إلى القشتاليين فساعدوهما على شن الغارة على أبيهما، فكانت لهم الغلبة عليهما، وانقطع خبرهما بعدئذ. وقد أسر ولده أبو عبد الله في بعض وقائعه مع الاسان، وضعف عقل أبي الحسن لانهماكه في الملذات والشهوات ولكبر سنّه، وأصبح لا يهتم بأمور الدولة فسيّرها وزراؤه وفق مشاربهم وأهوائهم، فساءت حال البلاد. وكانت في أوائل حكمه سنة ١٤٧٠ م. تتكون

من أكثر من مائة مدينة متفاوتة الكبر والاتساع عدا ما كان بها من ضعف ذلك من الأبراج والحصون، دع القرى والدساكر، وكان تعداد ملكه أربعة ملايين من النفوس، انتقص العدو أطرافها شيئاً فشيئاً وأصيب أبو الحسن بالصرع والعمى، فتنازل عن الملك لأخيه أبي عبد الله الزغَل وسافر إلى المنكب وبقي فيه إلى أن مات.

وقد أطلق الاسبان أبا عبد الله من أسرهم لمناوأة عمه الزغل فأخذ يشن عليه الغارة تلو الغارة بمساعدتهم. وأخذ الاسبان يستولون على أطراف البلاد الإسلامية، لانشغال المسلمين بالفتن والدسائس فاستولوا على كثير من البلاد الحصينة المهمة مثل مالقة والمرية.

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام ما بقي للمسلمين من بلاد، يستقل كل واحد منهما بإدارة قسم عن الآخر لئلا يتمادى العدو في انتهاز الفرص السانحة من خلافهما للنكاية بالمسلمين. وخرج الزغل إلى وادي آش؛ واستولى أبو عبد الله حليف القشتاليين على غرناطة. إلا أن الاسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم فأرسل صاحب غرناطة إلى الزغل من يزيد نار الفتنة أواراً بينه وبين ابن أخيه، فسار معهم لحربه لغضب فرديناند عليه، لأنه لم يسلم له في حصن الحمراء. واستولى القشتاليون على أغلب الحصون التي تحيط بغرناطة، فسلطوا على الزغل رجلاً من بني الأحمر اسمه يحيى، كان قد تنصر وكان يعيش في إشبيلية فخوف يحيى هذا المتنصر من الزغل وحسن له التنازل عن وادي آش لفرديناند نظير مال كثير، ويذهب إلى بلاد المغرب ليأمن الشر، وأثر ذلك الإرهاب والترغيب في نفس الزغل، فقبض المال الكثير وذهب إلى فاس، فنقم عليه سلطانها مؤازرته للنصارى على المسلمين وصادر أمواله وسمل عينيه، وبقي في سجنه حتى مات ميتة شنيعة، وهو بائس حقير مرذول.

أما أبو عبد الله محمد فما زال يدفع جيوش عدوه عن غرناطة حتى أعلنه

أهلها بعجزهم عن الدفاع عنها، وانهم يقبلون شروط الصلح التي عرضها فرديناند، فاضطر أبو عبد الله أن يسلّم مفاتيح غرناطة إلى فرديناند في ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ ثم هاجر أبو عبد الله إلى المغرب وذهب إلى فاس، وعاش بها كأحد أفراد الناس، حتى مات بها سنة ٩٤٠ هـ وبقي نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ يصرف إليهم من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمساكين، وأبو عبد الله هذا هو الذي يعرفه الاسبان والفرنجة باسم بوباديل Bobadil.

ومما يذكر أن محنة مسلمي غرناطة كانت أيام السلطان بايزيد الثاني العثماني، فاتفق هو وقايتباي سلطان مصر حينئذ على مساعدتهم بأن يرسل بايزيد أسطولاً إلى شواطىء إسبانيا، وأن يرسل قايتباي جيشاً من جهة إفريقية، إلا ان بايزيد انشغل بفتنة أولاده كركود وأحمد وسليم، ووقوع الحرب بينهم، حتى اضطر للتنازل عن الملك إلى ابنه سليم.

وأرسل فرديناند وايزابلا سفيراً لسلطان مصر قايتباي يسمى السنيور (بطره مارثير) فجعل بمهارته يقنع قايتباي بالعدول عن إرسال جيشه لمساعدة المسلمين. واكتفى بايزيد وقايتباي بإرسال كتب إلى فرديناند وايزابلا وإلى البابا وإلى ملك نابولي بعدم إرهاق مسلمي الأندلس، وقد عرفنا فيما بعد قيمة تلك الكتب، فكأنما كانت لتأجيج نار التعصب الأثيم.

وكان المسلمون بالأندلس يستنجدون بسلاطين المغرب كلما اشتد ضغط الاسبانيين عليهم. فكان أولئك السلاطين يرسلون إليهم الجيوش والأساطيل فيكشفون عنهم الضر بعض الشيء. وقد رأينا ما كان من أمر المرابطين والموحدين. ولما ضعف أمر هؤلاء استولى ملوك الاسبان على جل حصون البلاد ومدنها الشهيرة في القرن السابع الهجري، فاستولوا على لوشة وماردة وبطليوس سنة ٦٢٢ هـ. وعلى جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ وعلى قرطبة سنة ٦٣٣ وعلى شاطبة سنة ٦٣٥ وعلى بلنسية سنة ٦٣٦ وعلى مرسية وإشبيلية سنة ٦٤٥

وعلى شلب وطلبيرة سنة ٦٥٩ وبقي للمسلمين في الأندلس غرناطة وضواحيها.

وقد استغاث محمد الثاني الفقيه بسلطان بني مرين يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٤ فأغاثه بجيش جرار هزم الاسبان. وكان ما كان مما سبق أن ذكرناه.

وقد تكررت تلك الإغاثات من المغرب إلى الأندلس. وكان آخرها زمن أبي الحسن المريني سنة ٧٤٠ حيث أرسل جيشاً كبيراً إلى طريف، فسار إليه ملك قشتالة بجيوشه البرية، وأرسل ملك البرتغال أساطيله البحرية لمحاصرته، وضيّقوا عليه الحصار من كل جهة حتى نفدت منهم الأقوات، وساء حال جيشه أمام الأعداء الذين هجموا عليهم من كل ناحية فقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وفر السلطان أبو الحسن إلى سبتة. وكانت موقعة مشؤومة على المسلمين هناك، وهي ثانية واقعة العقاب.

وحدث بعد ذلك الشقاق بين ملوك المغرب، وكثرت الثورات الداخلية. وكانت فتنة بينهم وبين بني حفص ملوك تونس واتفق الاسبانيون مع بابا روما على طرد المسلمين من غرناطة فأقرّهم على ذلك. فرأوا الحيلولة بين مسلمي المغرب والأندلس باحتلال ثغور العدوة، فاستولى البرتغاليون على سبتة سنة ٨١٨ هـ واستولى الاسبانيون على جبل طارق سنة ٨٦٩ هـ ثم على مدينة عنابة (بونة) سنة ٨٦٧ هـ واستولى البرتغاليون على قصر المجاز سنة ٨٦٢ هـ. وعلى طنجة سنة ٨٦٩ هـ وعلى أصيلا سنة ٨٧٦ هـ. واشتد الاضطراب ببلاد المغرب لاستمرار الحروب الداخلية والفتن بين بني مرين، سيّما أيام السلطان عبد الحق بن سعيد. وقد وصل اليهود أيامه إلى الوزارة. وأصبحت الكلمة النافذة لهم لضعفه. فأرهق اليهود المسلمين بالمغارم وأكثروا من ظلمهم، وحسنوا لابن سعيد الوقيعة ببني وطاس أحد فروع بني مرين. وكان منهم الوزراء وعظماء الدولة فقبض عليهم وقتلهم. وفر منهم الشيخ محمد الوطاسي إلى الصحراء. فالتفت حوله قبائل البربر، وساروا إلى فاس فاستولى بهم عليها سنة

٨٧٦ هـ. وبقي سلطاناً على المغرب الأقصى إلى أن مات في سنة ٩٦٠ هـ. وفي مدته وفد عليه السلطان أبو عبد الله بن الأحمر مع أسرته بعد تسليمه غرناطة، فأكرم وفادته.

واستيلاء الاسبانيين على ثغور المغرب جعل مسلمي الأندلس في عزلة تامة عن كل معين. وأصبحت دولة غرناطة محصورة بأساطيل العدو من الجنوب والشرق وبجيوشه من الشمال والغرب. وضيق العدو الحصار على غرناطة حتى استولى عليها سنة ٨٩٧ هـ. وخرج حكم إسبانيا والأندلس من يد المسلمين أخيراً بعد أن لبثوا بها ثمانية قرون تقريباً.

وقد عني الاسبان بإنشاء الأساطيل وتدريب الرجال على قتال البحر والبر وكانت بحريتهم في حكم شارلكان تخرج من جنوة ومن ثغور إسبانيا الشرقية والجنوبية وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية واستولت مراكب شارلكان على بجاية ووهران ومدينة الجزائر. وانشأ الاسبان معاقل وحصوناً كبيرة على سواحل المغرب.

وكان لأربعة إخوة من تجار الأتراك بعض السفن فكانت مراكب الاسبان تعبث بها. فاتفقوا مع سلطان تونس محمد الحفصي على أن يعطيهم ثغراً من ثغوره يلجأون إليه بسفنهم ويتعقبون سفن الاسبانيين ويمنعونهم من التطاول على بلاده على أن يعطوه خمس ما يغنمونه منهم.

وكان (خضر) أحد هؤلاء الإخوة رجلاً في منتهى الشجاعة ويعرفه الافرنج باسم ذي اللحية الحمراء «بارباروسا» وكانت له معرفة تامة بالطرق البحرية. فأخذ يتعقّب سفن الاسبانيين حتى أخذ منهم بجاية، ثم استرد ثغر الجزائر سنة ٩٢٢ هـ وبعث بمفاتيحها مع هدية ثمينة إلى السلطان سليم الأول العثماني فعينه السلطان وزيراً على الجزائر. وبعث إليه بأسطول من أساطيله. وبفرقة من العساكر العثمانية. فاستولى على كل بلاد الجزائر بهذه القوى. وأخذ أسطوله يجوب البحر الأبيض المتوسط، فكان يلقي الرعب في قلوب

الأوروبيين، ثم ساروا إلى سواحل إسبانيا وأنقذوا كثيراً من المسلمين الذين كان الاسبان يضطهدونهم أفظع الاضطهاد ويذيقونهم ألوان العذاب، فانضم إلى أسطوله كثير منهم، وأبلوا بلاء حسناً في حروبهم مع الأسطول الاسباني، بقيادة أميرهم البحري الشهير (اندريا دوريا) وعرف خضر هذا أو «باربار وسا» باسم خير الدين باشا وعينه السلطان سليمان القانوني أمير البحر الأكبر للبحرية العثمانية. واشتهرت في مدته بحروبها وانتصاراتها على أساطيل أوروبا المتحدة. ولولاه لكانت إسبانيا تغلّبت على جميع ممالك العرب مدة الملك شارلكان الذي جمع كلمة أوروبا على حرب المسلمين براً وبحراً فانتصر عليهم السلطان سليمان في الأولى وخير الدين في الثانية وتمّ للعثمانيين الاستيلاء على طرابلس سنة ٩٥٠ هـ ثم على تونس سنة ٩٨١ هـ وبذلك تمّ لهم الاستيلاء على معظم شمال إفريقية وأصبح أسطولهم سيد البحر الأبيض المتوسط.

ومع ما وصل إليه الأتراك العثمانيون من القوة فإنهم أبوا أن يكرهوا أهالي البلاد المفتوحة من غير المسلمين على أن يعتنقوا الإسلام، وقد كانوا قادرين على ذلك، بخلاف فرديناند وايزابلا إذ أمرا باضطهاد مسلمي الأندلس بكل لون من ألوان العذاب. وإخراجهم من دينهم بعد أن سلمت غرناطة لأيدي الاسبان بعد حصار دام سبعة شهور حتى كان الناس فيها يأكل بعضهم بعضاً.

وقد كانت شروط التسليم سبعة وستين شرطاً. أمنوا فيها أهلها على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم وأملاكهم وحريتهم، وإقامة شريعتهم، واحترام مساجدهم ومعابدهم وشعائرهم، وفك أسراهم، وإجازة من يريد الهجرة منهم إلى بر العدوة، وإعفائهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة، وغير ذلك من الشروط التي لم ينفذ منها ولا شرط واحد عقب الاستيلاء على غرناطة مباشرة لتمادي الاسبانيين في التعصب المذموم. وأتوا ما أتوا باسم السيد المسيح الذي جاء بالمحبة والسلام.

فانظر إلى أنظمتهم الكهنوتية التي رتبوها لمحاربة المسلمين، وأسموها بأنظمة فرسان الهيكل، وقلعة رياح، ونظام ماري يعقوب، ونظام ماري جرجس ونظام سيدات الفأس. وكان خاصاً بالنساء. . . حتى النساء.

وزاد تعصبهم ما كان يصدره الباباوات من المنشورات ضد المسلمين، سيّما بعد استيلاء الأتراك على استنبول سنة ٨٥٧ هـ. .

ولما ثار جماعة من البيّاذين ـ وهم من مسلمي الأندلس كانوا بغرناطة، عرفوا بعزّتهم ونخوتهم، وفتكوا ببعض الحكام ـ قمع الاسبان تلك الثورة بكل قسوة وغلظة.

وفي سنة ١٥٦٣ م ثار فرج بن فرج من سلالة بني سراج ولجأ إلى جبال البشرات وتبعه عدد غير قليل من غرناطة. وكان منهم «هادوناندو دوفلور»، وكان من نسل خلفاء قرطبة، فنادوا به ملكاً عليهم باسم محمد بن أمية، وعمّت الثورة كل نواحي جبال البشرات، واستمرت الثورة سنتين، وهي في منتهى شدّتها، وأبلى الطرفان فيها بلاء عظيماً. ومات فيها خلق كثير من الطرفين. وخلع المسلمون ابن أمية لهوادته وولوا أمرهم أحد زعمائهم المعروف ببسالته وشجاعته وإقدامه. وكان اسمه عبد الله بن أبيه. وظل المسلمون في ثورتهم حتى غلبتهم كثرة الاسبان فغلبوهم في نهاية الأمر وشتّتوا جموعهم، وأعملوا فيهم القتل والتحريق والنكال وعلّقوا رأس عبد الله على أحد أبواب قرطبة. وبقيت الرأس معلّقة عليها ثلاثين سنة، واشتد الاسبان في مطاردة المسلمين على ما كان بهم من شدة في تعصّبهم مما دعاهم للثورة عليهم.

ويقدر البعض عدد من عذب من المسلمين بعد سقوط غرناطة بثلاثة ملايين من النفوس قتل من قتل وحرق من حرق، ونجا بنفسه من نجا بما معهم من صناعة ومعرفة كبرى بالزراعة والتجارة وخربت غرناطة والأندلس وأوحشت من أهلها الأمجاد.

واضطر من بقي من المسلمين في الأندلس ممن لم يقدروا أن يهاجروا إلى بلاد إسلامية أن يتنصر وأن يتدجّن وعرفوا بالـمُدَجّنين Mudejares ومع ذلك أُسيء الظن بهم وعوملوا أسوأ معاملة.

أما من هاجر منهم إلى بلاد المغرب فحملوا معهم علومهم وفنونهم وصنائعهم، فنهضت بهم الزراعة في تونس، وظهرت بها الصناعة ونشطت حضارتها لقدومهم، وعمرت بهم الديار وبنوا البنايات على الطراز الأندلسي، وعمّروا العمارات على أحسن شكل هندسي ولا يزال إلى الآن كثير من الأسماء الأندلسية معروفاً بين الأسر التونسية وغيرها إلى اليوم، على ما سمعت من بعض علمائها كالسيد الخضر حسين التونسي المتمصر، وذكر لي بعضاً منها على سبيل المثال عندما سألته عن ذلك.

أما من اضطر إلى البقاء بإسبانيا والبرتغال من رجال الفن من المسلمين واليهود فقد عوملوا معاملة يأنف منها العبيد الأرقاء واضطرهم الاسبان لنحت التماثيل في الكنائس وبنائها وتجديد بعض الآثار الفنية الإسلامية مما لا يمكن لغيرهم عمله. وقد بقي الكثير من آثارهم يملأ دور الآثار بإسبانيا من نحاس مكفت بالذهب والفضة والعاج المنقوش.

وبقيت في البلاد بقية ممن تنصر من المسلمين يسمونهم (مورسك Mauresque أعني المغاربة السود) اندمجوا في الاسبان والبرتغال وتكلموا لغتهم، ولكنهم حافظوا على لغتهم العربية من جهة أخرى، فكتبوها بالأحرف الاسبانية، ويسمونها الخميادو، ولا تزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف الافرنكية.

وقد أصبحت لغة أخرى جديدة غير العربية لما دخلها من التحريف والتصحيف كشأن اللغة المصرية القديمة لما كتبت بحروف إغريقية، ودخلها ما دخلها من التغيير. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

ولقد رأيت أن الانقسام الذي حدث في جسم الأمة الإسلامية بين قبائل

العرب أولاً، وبين العرب والبربر وغيرهم من العناصر الأخرى، وبين أفراد الأسر المالكة، وتهالكهم على الملذات والشهوات، وغير ذلك من عوامل الضعف هي التي مكّنت لجراثيم الاسبان التي لم يطهرها المسلمون من جزيرة إيبريا حين ملكوها، كما كان رأي طارق أن يفعل بمن بقي من سكانها الأصليين وأن تكون جبال البرانس (البيرينات) كلها في يد المسلمين حتى يأمنوا شر تلك الجراثيم وهي قليلة سكنت الشمال الغربي من إسبانيا قرب خليج غسقونية (جاسكونيا) على نهر دافا، كان يسميه المسلمون بالصخرة والاسبانيون يسمونها كوفادونجا لجأ إليه فلول من القوط مع من بقي منهم واندمج في البشكنص (الباسك) وانتخبوا رجلاً منهم من سلالة لذريق آخر ملوك القوط اسمه بلايو ليكون أميراً عليهم، وكانت هذه الفلول تعتصم بما في تلك الجهة من الحصون والمعاقل الطبيعية ويستميتون فيها دفاعاً عن وجودهم وحياتهم. وإن كانوا يتظاهرون أحياناً بالطاعة والاخلاص للمسلمين. وقد يرشدونهم إلى عورات الفرنجة فيما وراء جبال البرانس، بل ويساعدونهم عليهم، وكانوا يدفعون بذلك عنهم الفرنجة من الشمال والمسلمين من الجنوب.

وبقي أمرهم على هذا المنوال حتى كوّنوا لهم دولة سمّوها ليون، أقاموا فيها ملكاً منهم. ثم أخذت دولتهم هذه في الاتساع إلى الجنوب الشرقي حتى عرفت باسم قشتالة فقام أمير منهم برعايتها، عرف باسم ملك قشتالة بعدئذ. وكانت قشتالة تمتد حدودها شرقاً ببطء حتى ظهرت مملكة ثالثة اسمها نَبِره (نافارا).

ثم ظهرت دولة أراجون في الشمال الشرقي للبلاد. وأخذت تلك الدول الأربعة تدس للمسلمين دائماً بواسطة ولاة الأطراف والحدود ويوقعون بينهم فيعلن الواحد منهم الحرب على الآخر، ويغيرون على حدود بعضهم البعض فتضطرب الأحوال. وقد يتعدّى الاعتداء الطرفين، فيسير الأمير أو الخليفة جيشاً لتهدئة الحدود والأطراف، وقد ينتهز مسيحيو الشمال هذه الفرص

للإغارة واقتطاع الأرض من الأطراف والحصون في الحدود والقلاع. وهكذا لم تتمتع البلاد بالطمأنينة والسلام لوجود تلك العوامل الهدّامة الدساسة من منتصف القرن الثاني للهجرة إلى منتصف القرن الخامس إلا قليلاً. وكل هذا من كيد ملوك قشتالة وليون وأراجون، إلا إذا وقعت بين هؤلاء الوقيعة فيضعف أمرهم حينئذ ويضطرون لدفع الجزية للخلفاء أو لأمراء المسلمين، كما حدث أيام عبد الرحمن الناصر(١) إلى أن انتهى أمر الأمويين بذهاب ملكهم. ثم كانت ملوك الطوائف الضعفاء المساكين بينما كان أهل الشمال يزحفون جنوباً ويحتلون البلاد من المسلمين ويملكونها حتى قضي الأمر وتسلّموا مفاتيح غرناطة ولم يبق للمسلمين من ذلك الملك الكثير إلا الذكرى المؤلمة.

---

(١) نشير على القارىء بمطالعة رحلة الأندلس لمحمد لبيب بك البتانوني أول طبعة بمطبعة الكشكول سنة ١٩٢٧ لما حوت من وصف مشاهد وأخبار تلك البلاد وصفاً شيقاً يدل على غزارة المادة.

٣ ـ مجموعة مراسيم ملكية لاضطهاد المسلمين ومطاردتهم

قد أورد للورنتي نص سلسلة من الأوامر التي أصدرها عاهلا إسبانيا، نقلاً عن المجاميع الرسمية الملكية، وإلى القارىء مختصر تلك الأوامر:

١ ـ في يوم الثلاثاء، اليوم العشرين من شهر يوليو سنة ١٥٠١ م الموافق ٤ المحرم سنة ٩٠٧ هـ صدر أمر من الملكين بمنع وجود المسلمين في مملكة غرناطة وقد اختارهما ـ أي الملكين ـ الله لتطهيرها من (الكفرة). كما أنه يحظر عليهم ـ أي المسلمين ـ أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم، ويحظر عليهم أيضاً الاتصال بمن تنصروا لئلا يفسد عليهم إيمانهم بمخالطتهم، وكل من خالف تلك الأوامر فجزاؤه الموت وتصادر أملاكه.

٢ ـ في يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٥٠٢ م (١٣ رمضان سنة ٩٠٨ هـ) صدر أمر ملكي آخر يحتم على كل مسلم حر يبلغ الرابعة عشرة من عمره، إن كان ذكراً، والثانية عشرة من سنها، إن كانت أنثى أن يغادر مملكة غرناطة قبل أول شهر مايو التالي. على أنه يسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف في ماله وأملاكه على أن لا يكون الخروج إلى إفريقية التي كانت في حرب قائمة مع إسبانيا أيامئذ. وليكن الخروج إلى بلاد أخرى.

وكل مخالفة للأمر تجعل صاحبها عرضة للموت والمصادرة. ولتمييز الأرقّاء من الأحرار تقيد أرجلهم بقيود من حديد متى عرفوا.

ولوحظ أن كثيراً من متنصرة العرب، وهم الذين تظاهروا باعتناق النصرانية كانوا يبيعون أملاكهم ويفرون إلى إفريقية فصدر أمر جديد:

٣ - في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ١٥٠٢ م (يوافق يوم ١٩ ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ.) صدر أمر ملكي يحظر على الناس التصرف في أملاكهم قبل مضي عامين كما يحظر عليهم أن يغادروا مملكة قشتالة إلا إلى مملكتي الأراجون والبرتغال.

ويجب أن لا يغرب عن البال تقرير حقيقة ما كان يبغيه الأحبار والقساوسة وملوك إسبانيا وما جاورها، وهو انهم كانوا يعرفون تمام المعرفة بأن المسلم أو اليهودي لا يرضى بدينه بديلاً؛ فكانت سياستهم ترمي إلى الإبادة ومحو الأثر. وقد أصدروا من الأوامر ما أصدروا وأقاموا المحاكم الفظيعة وصادروا ونهبوا وهتكوا الأعراض، وأذلوا وخسفوا الأرض بمن عليها من غير معتنقي الكثلكة بشتى الطرق وضروب التفنن في التعذيب والنكال. فمن تنصير غير الكاثوليك ومراقبة أولئك المتنصرة مراقبة الأبالسة واختلاق التهم وترتيب المؤامرات السرية والعلنية لمحاربة من اعتنق الكثلكة أو تظاهر باعتناقها.

انظر إلى الكردينال كمنيس، فإنه أراد أن ينصر كل المسلمين واليهود. ويقال: إنه أرغم خمسين ألف مسلم على أن يعتنقوا مذهبه. ولكن هذا لم يغنهم فتيلاً ولم يمنعه أن يأتي بضروب العسف لهم ويتفنن في تعذيبهم. والملك فرديناند الذي كان يتظاهر بالمحافظة على اليهود قد روي في أواخر أيامه أن آلافاً مؤلفة قد أجبروا على اعتناق النصرانية، وأن ألوفاً قد آثرت فقد كل شيء من حطام الدنيا على الردة، فتركوا أوطانهم، وتفرقوا في ثغور إفريقية. ولم يبق بقشتالة إلا المتنصرة فحسب.

وجاء بعد كمنيس الدون الفونسو مانريك، وأصبح كبير المفتشين، وكان شديد التحمس لمقاومة ما كان يسمى بالكفر في تلك العصور، ومعنى ذلك:

التدين بغير الكثلكة أو المروق عنها. وكان يأخذ خصومه بأقل شبهة، سواء كان من متنصّرة المسلمين أو ممن تنصر من اليهود، أو ممن كان على مذهب مارتن لوثر، أو كان من المفكرين الأحرار، أو غير ذلك. ولم يكن لأحد من هؤلاء إلا جزاء الإعدام تعذيباً وحرقاً.

وقد أصدر مانريك الأوامر الآتية:

إن كل مسلم تنصر يعد كأنه قد ارتدّ إلى الإسلام، إذا ما مدح دين محمد أو قال: إن يسوع المسيح ليس بإلّه ولم يكن إلا رسولاً. أو قال: بأن صفات مريم العذراء أو أن اسمها لا تليق بأمه. وعلى هذا يجب على كل مسيحي أن يبلغ ما يعلم من تلك الأمور، كما أنه يجب عليه أيضاً أن يبلغ عما يكون قد سمعه أو رآه من متنصرة المسلمين إذا هم زاولوا بعض العادات الإسلامية، كأن يأكل اللحم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك يباح له. أو إذا احتفل متنصر بيوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو أن يولي وجهه شطر الشرق قائلاً: باسم الله، أو إذا أوثق أرجل الحيوان قبل ذبحه. أو رفض أكل لحم ما لم يذبح، أو ما ذبحته امرأة، أو ختن أولاده، أو سماهم بأسماء عربية، أو أعرب عن أمنيته من اتباع تلك السنّة، أو إذا قال: بأنه يجب ألا يعتقد إنسان إلا في الله وحده، وأن محمداً عبده ورسوله، أو إذا أقسم بما في القرآن، أو إذا صام شهر رمضان وتصدق خلاله، وكان لا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو إذا تسحر ليلاً أو قام للوضوء، أو إذا صلى وولى وجهه شطر المشرق، أو إذا ركع أو سجد وتلا شيئاً من القرآن، أو إذا تزوج وفقاً لما توجبه الشريعة الإسلامية أو إذا أنشد أغاني عربية، أو أقام حفلات للرقص أو للموسيقى العربية، أو إذا اتبع قواعد محمد (يريد الإسلام) الخمس، أو إذا لمس بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لتلك القواعد (وليس هذا من الدين) أو إذا غسل الموتى وكفنهم في ثياب جديدة، أو دفنهم في أرض بكر، أو وضعهم في قبور من الحجر مضطجعين على جنوبهم وأسند رؤوسهم إلى حجارة، أو إذا غطى قبورهم بالغصون الخضراء، أو استغاث بمحمد عند

الحاجة. وقال: إنه نبي ورسول الله (وليس ذلك من الإسلام. فإن الاستغاثة لا تكون إلا بالله وحده) أو إذا قال بأن الكعبة هي أول بيت من بيوت الله. أو إذا قال: بأنه لم يتنصر وهو يؤمن بالدين المقدس (المسيحية) أو قال بأن آباءه وأجداده قد فازوا برضا الله وقد ماتوا على الإسلام.

ونصت تلك الأوامر بأنه يجب على المسيحيين أن يبلّغوا ما عرفوه عن المتنصرين إذا هم هاجروا إلى إفريقية أو غيرها من البلاد ليرجعوا إلى دينهم القديم وأنهم ارتدوا عن كثلكتهم.

وقد رفع المتنصرة ظلامتهم إلى مانريك في برغش عام ١٥٢٤ م (يوافق سنة ٩٣٠ هـ.) مذكرينه بما قطع لهم من عهود أن لا يقدم أحد منهم إلى محاكم التفتيش إلا لِتُهَم خطيرة.

ويقال: بأن المجلس الأعلى للتفتيش؛ وافق أو أظهرالموافقة على وجهة نظرهم، وأمر بالإفراج عن متهمين لم تثبت عليهم أي تهمة ثبوتاً تاماً.

والواقع أن هذا الأمر هو تحصيل حاصل على ما يقولون، لأنه يجب الإفراج عن المتهم إذا لم تثبت ضده تهمة.

نفذت تلك الأوامر، وطبقت تلك القوانين على المسلمين، وعلى المتنصرة بمملكة قشتالة مملكة إيزابيلا، وأمن مانريك مسلمي مملكة الآراجون منها حيناً، لأن طبقة الأشراف وأرباب الضياع والمزارع فيها رأوا في تنفيذها خراب تلك الضياع وتعريض أملاكهم ومواردهم للضياع. وقد لمحوا للملك بذلك. فتعهد الملكان بعدم التعرض للمسلمين، كما تعهد الملك شارل الخامس بذلك سنة ١٥١٩ م (يوافق سنة ٩٢٥ هـ.) لمجلس النواب.

ثم قامت حرب أهلية بمقاطعة بلنسية بين جماعة الأشراف والكافة من الناس، فرأى هؤلاء أن يعمدوا إلى اضطهاد المسلمين الذين كانوا في كنف النبلاء الأشراف، وتحت رعايتهم نكاية فيهم. وكانوا يعلمون ان المسلمين هم

أعوان الأشراف، وعليهم يعتمد هؤلاء في أعمالهم وفي مزارعهم. فاضطهد الكافة المسلمين أينما كانوا وطاردوهم وأجبروهم على اعتناق المسيحية. وقد تنصر بضعة آلاف منهم خشية العذاب المقيم والاضطهاد السائد.

وهدأت الفتنة ورجع جل المتنصرين إلى حظيرة الإسلام وهاجر آلاف منهم إلى الجزائر. فاتخذ الملك ذلك ذريعة لإظهار غضبه وإنزال نقمته على الباقين في مملكته وأخذ على نفسه أن لا يدع مسلماً في بلاده، ورجا البابا أن يجعله في حل من نقض عهده الذي كان قد أخذه أن لا يتعرض للمسلمين. فرسم البابا في الثاني عشر من شهر مارس عام ١٥٢٤ م (يوافق ٦ جمادى الأولى سنة ٩٣٠ هـ.) بحث رجال التفتيش قضاته ومفتشيه بأن يعجلوا بإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية الكاثولكية. ومن أبى من المسلمين فعليه أن يخرج من إسبانيا، وأمهلوهم مدة، فمن لم يعتنق المسيحية أثناءها كان جزاؤه أن يصبح رقيقاً عبداً ما عاش.

وأمر البابا في ختام مرسومه بجعل كل المساجد هناك كنائس.

وعقد شارل الخامس اجتماعاً حضره أعضاء من مجلسي قشتالة والأراجون ومجلس الهند ومن القساوسة والأحبار والمفتشين والقواد العظام.

ونظر الحاضرون فيما يجب عمله بعد صدور أمر البابا الأخير، أيطبق على من اعتنق منهم المسيحية، وهو مكره من قبل، أم يطبق عليهم من جديد؟

وبعد أن تشاور الجمع في الأمر ملياً أجمعوا على ان مسيحية المتنصرين صحيحة لا شك فيها. وأنه يجب على كل المتنصرين أن لا يبرحوا إسبانيا، لأنهم مسيحيون، وأجبروا على تعميد أولادهم، كما أنهم أمروا بالذهاب إلى أكبر كنيسة في بلنسية ليتطهروا مما كانوا عليه من الكفر والارتداد. ولما عادوا من الكنيسة علموا بأن من يرجع عن مسيحيته يحكم عليه بالإعدام وتصادر أمواله.

ومن ذلك الحين حولت كل المساجد إلى كنائس وحرم عليها أن يتلى فيها اسم الله وأن تقام فيها صلاة إسلامية.

لم يجد المسلمون مناصاً من ان يلجأوا إلى الجبال يحتمون في ذراها، ومغاورها، وان يثوروا زمناً ثم عادوا للسكينة. وقد أصدر الملك أمراً بالعفو عنهم. وكتب إلى زعماء المسلمين ببلنسية يحضهم على اعتناق المسيحية، وأنهم إن فعلوا كانت لهم منه الحماية والعون، وان تكون لهم كافة الحقوق التي للمسيحيين طبعاً. وأكّد لهم انه سيفي لهم ويحفظ عهده معهم، مهما كان الأمر.

إلا ان سلسلة الاضطهادات لم تنقطع بعد. فقد صدر أمر إلى متنصرة المسلمين في اليوم الحادي والعشرين من شهر أكتوبر سنة ٥٢٥ م (يوافق ٤ المحرم سنة ٩٣٢ هـ) يحظر عليهم بيع الذهب والفضة والحرير والحلي والأحجار الثمينة والمواشي، وأشياء أخرى ذكرت في المرسوم.

ثم أعقب ذلك أمر صدر في الثامن عشر من الشهر التالي يوافق ٢ صفر سنة ٩٣٢ هـ يوجب على المسيحيين ان يبلغوا الديوان المقدس كل ما يأتيه المتنصرون من ردة أو مخالفة للمسيحية، أو ما يوجب الشبهة في سلوكهم. وألزم المسلمون بوضع شارة زرقاء في قبعاتهم، وبتسليم كل أسلحتهم، وحظر عليهم حيازة شيء منها بعد. ومن ضبط منهم معه سلاح فجزاؤه الجلد. وألزمهم السجود في الطرقات إذا ما مر أمامهم حبر كبير وألزموا أن لا يجهروا بشعائرهم إذا ما أقاموها وأن يغلقوا مساجدهم وجوامعهم.

ولم يلبثوا أسبوعاً واحداً حتى فوجئوا في الخامس والعشرين من الشهر عينه بصدور أمر يوجب عليهم مغادرة إسبانيا قبل نهاية شهر يناير سنة ١٥٢٦ م. (يوافق ربيع الثاني سنة ٩٣٢ هـ) من طرق في الشمال عينت لهم في الأمر.

ونص المرسوم على أن كل من يبقى منهم في ضياعه فجزاؤه الغرامات الفادحة.

فثار المسلمون لهذا، سيما من كان منهم في مقاطعة قورية. وعمت الثورة كل مقاطعة بلنسية.

ويقول بعض المؤرخين العارفين: بأن عددهم كان يربو على ستة وعشرين ألف أسرة، لجأ كثير منهم إلى الجبال، ولبثوا يقاومون جنود الحكومة التي أرسلت إليهم، وذهب وفد ممن رأوا في السلم أمناً أو شبه أمن إلى حاكمة بلنسية وكانت تسمى بالأميرة «جرمين ده فوا» فحولت المسألة إلى بلاط الملك لعرض مطالبهم.

ومثل الوفد بين يدي الملك ورجاه أن يمهل المسلمين خمس سنين، لاعتناق المسيحية، أو فليغادروا المملكة من ثغر القنت. فرفض الملك هذا الرجاء.

فعرض الوفد أن يتنصر المسلمون على شريطة أن لا يحاكموا أمام ديوان التفتيش قبل مضي أربعين سنة. فرفض الملك هذا أيضاً.

فذهب الوفد إلى مانريك رئيس ديوان التفتيش الأكبر، وقدموا إليه مذكرة يعرضون فيها اعتناقهم المسيحية على شروط منها:

١ ـ ألا يطبق عليهم قضاء الديوان قبل مضي أربعين سنة.

٢ ـ أن يحتفظوا خلال الأربعين سنة بأزيائهم ولغتهم.

٣ ـ أن يسمح لهم بمدافن خاصة بهم.

٤ ـ أن يسمح لهم بالتزوج من أقاربهم وحتى من بنات أعمامهم طيلة هذه المدة.

٥ ـ أن تعتبر كل العقود القديمة صحيحة.

٦ ـ أن يستمر رجال الدين منهم على القيام بأعمالهم وأن يعهد إليهم في قبض ريع ما كان للمساجد التي قلبت إلى كنائس.

٧ ـ أن يسمح لهم بحمل السلاح كبقية المسيحيين.

٨ ـ أن تخفض الضرائب التي يدفعونها إلى السادة، وأن تكون معادلة لما يدفعه المسيحيون.

٩ ـ أن لا يدفعوا ضرائب بلدية بالمدن الكبيرة إلا إذا اختاروا الاشتراك في تولي أعمال المدينة وأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسيحيون من الحقوق.

ولما عرضت تلك المطالب على مجلس الدولة كانت إجابته ما ملخّصه:

١ ـ أن تتخذ كل الإجراءات التي اتخذت إزاء المتنصرين من المسلمين بمملكة غرناطة، مع إخوانهم في المحنة ببلنسية ومملكة الأراجون.

٢ ـ أن يسمح لهم بالاحتفاظ بأزيائهم ولغتهم مدة عشر سنين.

٣ ـ أن يسمح لهم بمدافن خاصة على شرط أن تكون قريبة من الكنائس، وأن يسمح بدفن المسيحيين الأصليين بها.

٤ ـ عدم الاعتراض على عقود الزواج القديمة. ولكن كل عقد جديد يجب فيه اتباع الشعائر المسيحية.

٥ ـ يحتفظ رجال الدين المتنصرين بقبض ريع ما للمساجد التي حولت لكنائس بنسبة ما يبدونه من الجهد في تنصير إخوانهم المسلمين.

٦ ـ أن يسمح للمتنصرين بحمل السلاح أسوة بالمسيحيين الأصليين.

٧ ـ أن يسوى بينهم وبين المسيحيين في دفع الضرائب إلى السادة وأرباب الضياع وفي الضرائب الأخرى.

٨ ـ أن تستمر الحالة في المدن كما كانت بالنسبة إليهم.

٩ ـ ان لا تفرض عليهم ضرائب لم تفرض من قبل.

* * *

فرأى المسلمون في ذلك أكثر ما يمكن الحصول عليه في أمثال تلك الشدائد. فأذعنوا، وأقبل كثير منهم على اعتناق المسيحية، إلا أقلية اعتصمت بالجبال، وأصرّت على الثورة، فجرد الملك جيوشه عليهم، فما لبثوا أن سلموا وأرغموا على اعتناق المسيحية إرغاماً. ودفعوا مبالغ طائلة فدية أنفسهم من الرق.

* * *

ولم ينثن الديوان ببلنسية عن غيّه. وكان يطمع في القضاء على الجالية الكبيرة من متنصرة المسلمين هناك. واشتد الديوان في مطاردتهم واضطهادهم من حين إلى حين. فكان المسلمون يلجأون إما إلى المقاومة وإما إلى بذل المال فدية عن أنفسهم. وسعى لمساعدتهم أحد المتنصرين من المسلمين المدعو كوسمي بن عامر. وكان له نفوذ بالبلاط الملكي لاتصاله به، لأنه كان من النبلاء. فصدر أمر ملكي في سنة ١٥٧١ (يوافق سنة ٩٧٨ ـ ٩٧٩ هـ) وفيه معنى العفو عمن ارتد منهم عن المسيحية هم وذريتهم من مصادرة الأموال، إذا هم ارتدوا. ولم يستثن من ذلك رجال الدين والفقهاء، ومن اختتن منهم ومن اتهم وكان رهن المحاكمة، فلا مصادرة إذا قبض عليهم.

وفي نظير ذلك تعهد المتنصرون أن يدفعوا لخزانة الديوان خمسماية وألفين من الدوكات كل سنة.

على أن هذا الأمر لم يطل عهده أكثر من ربع قرن، حتى عادت المحاكم إلى شدتها، والديوان إلى اضطهاداته، ورأى أشراف الأراجون وذوو الضياع والمزارع فيه أن الخير كل الخير لهم إذا لم يحدث ببقية بلاد الأراجون ما حدث ببلنسية، وخشوا على مصالحهم، فجل المسلمين فيها كانوا يفلحون أراضي الملك وأراضيهم. وفيهم مهرة الصناع. وهم مع ذلك لا يأتون جريمة، بل وادعون مسالمون، يكدون ويكدحون. وقد أفهموا الملك ذلك، وأفهموه أن لا داعي لإجبارهم على اعتناق المسيحية. فالاضطرار لا يعني

التعلّق بأهداب الدين الجديد والإخلاص له ولكن جهود الأشراف وكبار الملاك كانت غير مجدية عند ملك لا يرعى عهوداً قطعها على نفسه.

وقد أصدر في سنة ١٥٢٦ أوامره لديوان التفتيش بإجبار مسلمي بلاد الأراجون كلها على التنصر. وقد نفذت تلك الأوامر، ولم يقاوم المسلمون هناك وقضي الأمر، إذ نفذت بذلك سياسة التنصير في كل أرجاء إسبانيا. ورجا أعضاء مجلس النواب من الملك أن يصفح عن المتنصرين إذا ما كان ذنبهم طفيفاً أو اتهموا بتهم تافهة، لحداثة عهدهم بدينهم الذي أجبروا على اعتناقه. فرسم الملك في أواخر سنة ١٥٣٠، لكبير المفتشين يأمره فيه أن يعفو عن الأوابين ويغفر زلات المتنصرين، إذا ما حسنت نياتهم.

* * *

وكان دون فرديناند بنجاس ودون ميشيل داراجون، وديجو لوبيز بنشارا من مقدمي المتنصرين عندهم لانتسابهم إلى أمراء غرناطة وسلاطينها السابقين، وكانوا قد أجبروا على اعتناق المسيحية لما غلب المسلمون على أمرهم في غرناطة، يوم تسليم أبي عبدالله الزغل ـ تقدم إليه ثلاثتهم خلال سنة ١٥٢٦ م (سنة ٩٣٢ هـ) إلى الملك لما زار غرناطة، برجاء.

وذكروا في رجائهم شدة اضطهاد القساوسة ورجال التفتيش والمسيحيين الأصليين لمتنصرة المسلمين.

وعهد الأمبراطور إلى أسقف قادس على رأس لجنة تحقيق تطوف أعمال غرناطة، وترى مظالم المتنصرين. وأتمت اللجنة أعمالها، وقدمت تقريرها مؤيدة صدق ما قاله الثلاثة، وعزت الاضطهادات إلى رجوع جل المتنصرين إلى الإسلام، وأن القليل منهم هو الذي حافظ على الدين الجديد.

أظهر الملك اهتماماً، وعقد مجلساً من المطارنة يرؤسه كبير مفتشي الديوان، وبحث المجلس المسألة المعروضة عليه، وقرر نقل محكمة التفتيش من جيان إلى غرناطة. ورسم الملك بالصفح عن المتنصرين وعما تقدم من

ذنبهم. أما من عاد إلى الردة عن المسيحية فجزاؤه شديد العقاب من الديوان.

وأذعن المتنصرون إلى الأوامر الملكية وما فرضته عليهم لجنة المطارنة. ولم يسلموا من دفع الأموال الطائلة للملك ليكون لهم الحق في ارتداء أزيائهم القديمة، وليعفوا أنفسهم من مصادرة الديوان لأموالهم إذا ما اتهموا بالردة.

وكان نصيب المتنصرين بالأراجون مثل نصيب إخوانهم بغرناطة.

ورسم الملك بأوامر عدة وقوانين كثيرة.

ومن ذلك: مرسوم صدر عام سنة ١٥٣٤ م (سنة ٩٤٠ هـ) يحظر على محاكم التفتيش ببلنسية مصادرة أموال المحكوم عليهم من المتنصرين المتهمين بالردة، وأن تدفع تلك الأموال إلى ورثتهم. ورسم الملك عام ١٥٤٣ (يوافق سنة ٩٤٩ ـ ٩٥٠ هـ) يمهل فيه المتنصرين في الميدو وأريفالو مهلة ليعودوا إلى حظيرة الكنيسة.

والتمس من البابا سنة ١٥٤٤ م (سنة ٩٥١ هـ) ان يصدر قراراً بأن يكون لمتنصري غرناطة الحق أن يتولوا هم وأبناؤهم الوظائف المدنية، حتى ولو اتهموا بالردة أكثر من مرة، وأن تكون لهم كافة الحقوق والامتيازات الكنسية، وأن لا ينظر في كل القضايا المقامة على المتنصرين أمام محاكم التفتيش.

وأصدر في سنة ١٥٤٨ م (٩٥٥ هـ) أمراً لكبير المفتشين فالديس: أن يصدر لائحة جديدة، يسمح بمقتضاها للمتنصرين أن يعودوا إلى حظيرة الكنيسة، دون أي احتفال علني، وأن تكون دار المتنصر بين دارين للمسيحيين الأصليين، ويحرم عليهم استخدام المتنصرين الجدد. ويسمح لأبنائهم الذكور أن يتزوجوا من بنات المسيحيين الأصليين إذا ما تزوجت مسلمة متنصرة من مسيحي أصيل وحكم على وليها الذي دفع لها المهر بمصادرة أملاكه بتهمة الكفر والإلحاد، فان كانت هذه التهمة قد ارتكبت قبل دفع المهر فلهذه المتنصرة من المسلمين أن تدفع باستثناء مهرها من المصادرة. ومثل هذا إذا ما

حمل متنصر من المسلمين مالاً إلى أسرة زوجه، فله أن يحتفظ بماله، حتى ولو حكم بمصادرة أموال من أعطى المتنصر المال.

ومات شارل الخامس وهو يعامل المتنصرين أحياناً بالشدة وأحياناً يمزج الشدة باللين.

وتولى من بعده ولده فيليب الثاني الشديد التعصب للكثلكة، ولكنه كان يرى من جماعة المتنصرة نشاطاً وقدرة على فهم العلوم وإجادة الفنون، وكان ديوان التفتيش لا تهدأ ثائرته أبداً ضد أولئك المساكين، كما أن الديوان ورجال الدولة كانوا يؤثرون المسيحيين الأصليين على أولئك المتنصرين البائسين ولهذا كان أولئك المتنصرون يتسللون إلى إفريقية، كلما لاحت لهم بارقة أمل في الهروب من إسبانيا المتعصبة.

ولم تفد محاولة الملك لاستبقائهم، لأن رجال الديوان كانوا لا يرون رأيه وكان كلما أصدر قانوناً قاوموه وتجاهلوه، وعملوا ضده. فقد أصدر الملك قراراً يبيح فيه للمتنصرة أن يتوبوا على يد القسيس توبة سرية فتقبل توبة التائب، فلا عقاب ولا مصادرة.

وكان القساوسة والأحبار يخفون ما يصدر الملك من أوامر وقوانين في صالح المتنصرين، فلا ينتفع بها أحد. وكانت إرادة الديوان هي الغالبة. وكانت فوق رأي الملك. والويل والثبور لجماعة المتنصرين.

* * *

واشتد الديوان في تتبع المتنصرين واضطهادهم فمن تكلم العربية، واستحم أو حجب النساء، أو لبس الأزياء الإسلامية. وكل من تلهى بالرقص كان كأنه أقام الدليل على ردته وكفره، والويل له من التعذيب.

وأخذ صغار الأولاد والبنات من آبائهم المتنصرين، وعهد بهم إلى المدارس والكنائس، ليشبوا فيها وهم لا يعلمون شيئاً عن العربية ولا الإسلام.

واستبيح كل شيء مع المتنصرين حتى اضطروا إلى ان يجتمعوا جماعات سرية ويتواطؤوا على الثورة دفاعاً عن النفس والعرض واللغة والدين. وأوفدوا بعض زعمائهم خفية إلى إفريقية، وطاف البعض بجبال البشرات لبث الدعوة للثورة. وساء حظهم لما ضبطت بعض كتبهم التي تبادلوها مع سلاطين وأمراء المسلمين بإفريقية. وكان في تلك الكتب أن الحكومات الإسلامية بإفريقية قد استفزتها حالة إسبانيا، حتى إنهم رأوا أن يبعثوا بالجند إلى ماربلة والمرية. فأخذت إسبانيا حذرها وعززت ثغورها، وشددت الرقابة على شواطئها. ولكن رجال المؤامرة لم ييأسوا بعد. ولم تفتر عزيمتهم. فاجتمعوا في إحدى ضواحي غرناطة في اجتماع سري واختاروا محمد بن أمية زعيماً لهم، يتولى كبر الثورة وقيادة القوم. وكان الزعيم من سلالة الأمويين، وقد أجبر على اعتناق المسيحية وأسموه فرديناند دي فالور.

ونزح المتآمرون إلى جبال البشرات وبدأوا بإعلان ثورتهم هناك، وانضم إليها سكان تلك المنطقة. وقد تغلّبوا على جنود الحكومة التي أرسلت لإخماد ثورتهم.

وقد اقتحموا الكنائس والأديرة وقتلوا قساوسة وأحباراً ممن كانوا يكيدون لهم، واستفحل أمر الثورة، فاضطرت الحكومة إلى تجريد حملة كبيرة على البشرات لتحيط به من كل ناحية، وحمت الحرب وكانت مواقع عربية مشهودة سنة ١٦٥٩ م (سنة ٩٧٦ ـ ٩٧٧ هـ) ولكن جنود الحكومة أمكنها أخيراً أن تنفذ إلى مراكز الثائرين، فاعتصم هؤلاء برؤوس الجبال، ووصلت إليهم جماعات من الرجال نجدة من إفريقية استطاعوا الوصول رغم كل رقيب على الشواطىء. وظلت الحرب سجالاً بين الجنود والثوار.

فاضطر الملك أن يرسل جيشاً كبيراً قائده أخوه الدون جوان، فسار من إشبيلية فسارعت البيازين وغيرها إلى الخضوع، ولكن بقية إخوانهم الثائرين عزموا على أن يقاتلوا أو يقتلوا. وكان قتالهم قتال المستيئس المستميت.

وقتل ابن أمية غيلة أثناء الثورة. فانتخب الثوار مولاي عبدالله عوضاً عنه. وظلت الحرب مستعرة طيلة الشتاء.

ورأى قائد جند الحكومة أن يعمد إلى سياسة المكر والمخادعة. فلجأ إلى المفاوضة وأذاع أمراً بالعفو العام لمن يلجأ إليه، وأن يمنح المتنصرين شروطاً حسنة للصلح، إذا هم أذعنوا ولم يقاتلوا. فأثر ذلك في بعض الثوار الذين كلوا من القتال. ورفض الصلح الآخرون. وهرب كثير بأسرهم إلى إفريقية خشية الانتقام إذا ما كان الفشل.

وما زالت جنود الحكومة تطارد مولاي عبدالله حتى تمزق جنده، وقتله أنصاره في نهاية الأمر فداء سلامتهم، وحملت جثته إلى غرناطة، وعرضت على الناس بعد أن مثل بها.

أما من بقي من المتنصرين فقد أجبروا على إخلاء دورهم وشردوا في مقاطعات اشتورش وجليقية بالشمال، وروقبوا مراقبة شديدة.

ودبر بعض المتنصرين ثورات في بلنسية وغيرها ولكن الحكومة قبضت عليهم وأذاقتهم سوء العذاب، وسالت دماؤهم أنهاراً وحرقت أجسامهم أكواماً مكومة.

* * *

وخلف الملك فيليب الثاني ابنه فيليب الثالث. وكان ضعيف الرأي يخضع لرأي القساوسة، وكان وزيره دوق دي ليرما من أشد الناس تعصباً للكثلكة، ومن ألد أعداء المسلمين ومتنصريهم. فأشار على الملك الضعيف سنة ١٥٩٩ م (توافق سنة ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨ هـ) بأنه يجب استرقاق شباب المتنصرين والكهول منهم وأن تصادر أموالهم، لأنهم مسلمون. وأن ينفى شيوخهم إلى مراكش والجزائر، وأن تؤخذ أطفالهم ليربوا في المعاهد الدينية بإسبانيا، وقد أقر مجلس الدولة ذلك المشروع، وأخذوا يدبرون في الخفاء كل ما يلزم من جهد وقوى لحصر عدد المتنصرين في كل إسبانيا.

وقدم المطران ربيرا مذكرة إلى الملك عام ١٦٠١ م (يوافق سنة ١٠٠٩ ـ ١٠١٠ هـ) يذكر فيها إخفاق كل محاولة مع المتنصرين، وأن في وجودهم الخطر كل الخطر على البلاد. وأن المبالغ الطائلة تصرف لمراقبتهم بدون فائدة. وقال: بأن الدين إنما هو دعامة الدولة الإسبانية. وعلى هذا فهو يقترح تأليف محكمة سرية من كبار الرهبان والقساوسة تحكم بردة المتنصرين وخيانتهم، وبناء على ذلك تعلن وجوب نفيهم ومصادرة أموالهم.

إلا أن هذه المذكرة لم يعمل بها، لأن مجلس الدولة رأى السير في تحقيق مأربه سراً، وأن لا تصطبغ إجراءاته في ذلك بصبغة دينية. فعهد ببحث المسألة إلى لجنة خاصة يرؤسها الدوق دي ليرما. فبعد بحث وجدال طويل بين أعضائها اتخذ المشروع لتنفيذه خطة نهائية. وذلك بإمهال المتنصرين شهراً واحداً لبيع أملاكهم ومغادرة إسبانيا حيثما شاؤوا. ولهم أن يجازوا إلى إفريقية وهم آمنون، ولهم أن يذهبوا إلى بلاد مسيحية إذا شاؤوا فيوصى بهم خيراً(؟!!).

وجعل عقاب من يتأخر عن الرحيل بعد انتهاء الشهر أن يجازى بالموت وأن تصادر أمواله. ولم تكن هناك معارضة ما على المشروع في ذاته.

ولكن إسبانيا كانت في شغل شاغل لما كان بينها وبين انكلترا وفرنسا من خصام فتأجل تنفيذ المشروع زمناً.

وعاد مجلس الدولة في يناير سنة ١٦٠٩ (شهر رمضان سنة ١٠١٧ هـ) للمسألة من جديد. وكتب تقريراً يحبذ فيه نفي المتنصرين لأسباب دينية وسياسية أتى التقرير عليها.

منها: أن إسبانيا معرّضة لخطر غزوها من مراكش؛ وقد أقيمت الأدلة والبراهين على خيانة المتنصرين في هذا الصدد. ولهذا فهم أهل للموت الزؤام أو الاسترقاق، ولكن إسبانيا رحيمة رقيقة لهم (؟!!) وتقنع بنفيهم من أرضها (الله أكبر!!).

وتقرر تنفيذ الخطة في خريف العام المذكور وأرسلت أوامر إلى حكام صقلية ونابولي وميلانو ليعدوا ما يلزم من سفن النقل لأولئك المتنصرين وقد جمعت سفن كثيرة تعد بالعشرات في جزيرة ميورقة من أوائل الصيف. ولما كان الثاني والعشرون من شهر سبتمبر سنة ١٦٠٩ م. أو شهر جمادى الثانية سنة ١٠١٨ هـ، أعلن قرار النفي الأخير؛ فاضطرب المتنصرون وفزعوا.

* * *

وقد جاء في هذا القرار: أن المتنصرة هم أعداء الملة والدين والوطن، وأن لهم اتصالاً بأعداء إسبانيا، وأن لا سبيل إلى جعلهم يعتنقون الدين المسيحي (الكاثوليكي) ولهذا وجب طردهم إلى بلاد البربر بإفريقية؛ وأنه يجب أن يغادر المتنصرون إسبانيا نساء ورجالاً وأطفالاً في ظرف ثلاثة أيام من يوم نشر القرار في المدن والقرى، وأن يذهبوا إلى الثغور التي يعينها لهم المكلفون بترحيلهم من قبل الحكومة. وجزاء من يتخلّف الموت.

وقد صرح لهم أن يأخذ كل منهم ما يستطيع حمله من المتاع فوق ظهره فقط وأن يحمل كل ما يستطيع من المؤونة. ولو أن الحكومة تكفّلت بمدهم بالغذاء أثناء السفر. ويجب عليهم أن يلبثوا خلال الأيام الثلاثة في أماكنهم رهن إشارة الموظفين المكلّفين من الحكومة بأمر ترحيلهم. وأن يكون كل ما خلفوه من عقار أو منقول للسادة، ومن أشعل النار في عقار أو منقول فجزاؤه هو وجيرانه في الحي جميعاً الإعدام.

وفي الأمر: أن يختار السادة ستة أشخاص من كل مائة من جماعة المتنصرين، شديدي التعلق بالمسيحية كثيري الخبرة بأعمال الزراعة وفهم الفنون، وأكبرهم سناً للانتفاع بهم في تلك الأمور، ومن كان دون الرابعة من سنه سمح له بالبقاء إذا رضي بذلك (عجباً؟!!) أو إذا رضي آباؤهم أو أولياؤهم بذلك. وإذا كانوا دون السادسة وكانوا من أبناء المسيحيين الذين لم يتنصروا فلهم أن يبقوا وأن تبقى معهم أمهم المتنصرة. وإذا كانت الأم نصرانية

أصيلة والأب متنصراً، فإن الأب ينفى وتبقى الأم مع أطفالها الذين كانوا دون السادسة وكل متنصر أقام بين مسيحيين مدة عامين ولم يختلط بالمتنصرين وشهد له قسيس بأنه على نصرانيته فله أن يبقى.

وكل من أخفى هارباً أو حمى متنصراً فجزاؤه الأشغال الشاقة مدة ست سنين.

وقد أمر الجنود والمسيحيون الأصيلون بعدم التعرض للمتنصرين، وأن لا يهينوهم لا بالقول ولا بالفعل. وجزاء من يفعل ذلك شديد العقاب.

* * *

كان ذلك القرار مفاجأة شديدة الوقع على نفوس المتنصرين. وكانت الثورات السالفة قد أنهكت من قواهم، وعلموا أن الحكومة قد اتخذت عدتها الكاملة لتنفيذ قرارها، وأعدت ما لها من بأس وقوة في كافة الأرجاء التي بقي بها متنصرون. ومع ذلك فقد حاول البعض أن يثوروا وأن يقاوموا وأن يدافعوا عن أنفسهم ما استطاعوا، سيما في بعض الجهات الجبلية، إلا ان مقاومتهم لم تجدهم شيئاً، وتغلبت الحكومة بقواتها وجبروتها عليهم بسرعة؛ وأخمدت ثوراتهم الضعيفة الأثر.

٤ ـ النفي من إسبانيا وتشتيت البقايا

وبدىء بتنفيذ الأوامر في أعمال الأراجون وبلنسية لأن القرار قد نشر فيهما أولاً.

ففي أوائل شهر أكتوبر عام ١٦٠٩ م (في شهر رجب سنة ١٠١٨ هـ) نفي نيف وثمانية وعشرون ألفاً من المتنصرين من ثغر دانية وثغور أخرى. وقد ذهبت بهم السفن إلى وهران ونزلوا في جوار وحماية سلطان تلمسان. ونفي من ثغر بلنسية ما يقرب من خمسة عشر ألفاً، ونفي البعض من القنت والموسيقى تعزف ألحانها والأغاني تنشد.

ويقدر البعض عدد المنفيين إلى أواخر سنة ١٦٠٩ م (سنة ١٠١٨ هـ) بما يقرب من المائة وخمسين ألف نفس، وقد كان بين المتنصرين ألوف من ذوي الثروة، أمكنهم أن يسافروا على نفقتهم الخاصة.

ورحل ما يقرب من الخمسة والعشرين ألف نفس كانوا بالأراجون الى نَبَرّه «نافارا» ورحل من قشتالة نحو من سبعة عشر ألفاً قصدوا فرنسا، فأذن لهم ملكها هنري الرابع بذلك على شرط أن يحافظوا على المذهب الكاثوليكي. وأن يسكنوا ما وراء الجارون.

أما في الجنوب الشرقي من إسبانيا وفي الأندلس فقد أعلن المتنصرون هناك بقرار النفي بغرناطة في الثاني عشر من شهر يناير عام ١٦١٠ م (يوافق ١٧ شوال سنة ١٠١٨ هـ) والقرار يشابه ما أشرنا إليه، إلا أنه سمح للمتنصرين

بالرحيل في خلال شهر، وأذن لهم أن يبيعوا المنقول مما يملكون، وأن يقبضوا أثمانه، وطبعاً يسهل فهم ما لهذا القول من قيمة وما تباع به الأشياء من أثمان هي نهاية ما يمكن أن يحصل عليه مضطر للبيع العاجل من رخص الأثمان.

ونص قرار غرناطة على أن الملك قد صادر عقار المتنصرين وأخذه لنفسه ويقدر البعض عدد المنفيين من إقليم غرناطة بما يقرب من مائة ألف نفس.

وأخذ القرار يعلن في بقية الجهات التي كان يسكنها المتنصرون في كل جهات إسبانيا.

ولا تسل عن القسوة والوحشية والشدة في معاملة أولئك البائسين.

وظلت سفن النقل تروح وتجيء لنفيهم شهوراً عدة، وهي مشحونة بهم وتلقي بهم في مختلف ثغور إفريقية بكيفية تفتت الأكباد أسى وحسرة، وتذيب النفوس ألماً ولوعة.

٥ ـ عدد من نفي

والخلاف كبير في تقدير المؤرخين لعدد من نفي من إسبانيا بعد ذلك القرار.

فليورنتي يقدّرهم بألف ألف نسمة؛ ويقدرهم غيره بستمائة ألف، وثالث بتسعمائة ألف. ويقدّرهم فون بورخشتال النمساوي بعشرة آلاف وثلاثمائة ألف.

وتقدر إحصائية تقريبية لسكان إسبانيا في تلك العصور بثمانية آلاف ألف نسمة. وإذا ما صدقنا ما يقوله نافاريتي من كبار مؤرخي إسبانيا بأن عدد من نفي من إسبانيا أثناء تلك العصور هو ألفان من الألوف اليهود وثلاثة آلاف ألف من المسلمين أو من متنصريهم عدا من استرق منهم أو قضى نحبه تعذيباً وحرقاً وعددهم كبير جداً يصعب تقديره، ولكن العدد لا يقل بأي حال من الأحوال عن مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف.

فإذا راجعنا كل تلك الأعداد الضخمة لتقريب الحقيقة إلى الأذهان بقدر ما نستطيع أمكننا أن نعرف مبالغ خسارة إسبانيا وغيرها لفقدها تلك الآلاف المؤلفة التي كانت الزهرة اليانعة في البلاد. فلما قطعت تلك الزهرة وذهبت بها ريح العسف والبغي استولت الوحشة على بلاد تمكّنت منها طغمة خاسرة تعمل باسم الدين وتتوارى خلفه وتأتي بمأساة هي (أشد ما سجلت صحف الإنسانية فظاعة وقسوة وبربرية) على حد قول الكردينال ريشليو. والتي لم

ترض رجل الدين كليورنتي وكان من أحبار الكنيسة ومن أعرف الناس بخبايا ديوان التفتيش وبأعماله، تلك الأعمال التي لا يغمض العين عن إتيانها من به ذرة من العقل والشعور أو كان على شيء ولو قليل من المعرفة بالدين دين عيسى ابن مريم الذي جاء يبشر بالسلام.

٦ ـ ما بعد النفي

سنة ١٦١٠ م سنة ١٠١٨ ـ ١٠١٩ هـ؟!

ولم تكف محاكم التفتيش عن إتيان مخازيها، بل حفظت السجلات، وسجل التاريخ عدة حوادث ومحاكمات على أفراد وجماعات اتهموا بالارتداد عن الكثلكة بعد نفي تلك الجموع الفقيرة سنة ١٦١٠ (سنة ١٠١٨ هـ).

فقد قبض في بلنسية على فرنشيسكو دي لوكي المتنصر سنة ١٦٢٥ م (سنة ١٠٣٤ ـ ١٠٣٥ هـ) وكان قد فر من إسبانيا وانضم إلى قرصان الجزائر الذين كانوا يغيرون على شواطىء أوروبا. ويقال: بأن هذا الرجل قد أدى فريضة الحج ووصف رحلته في كتاب ألفه، وقد حكمت عليه محكمة التفتيش بالجلد والسجن ما عاش.

وبعد عشرين سنة قبض على جماعة من متنصرة العبيد، لأنهم حاولوا الفرار إلى الجزائر وقضت عليهم محكمة التفتيش ببلنسية ـ أن يذوقوا صنوف عذابها.

وصدرت أحكام بقرطبة على مسلمة استرقت وأجبرت على التنصر لمحاولتها الفرار إلى الجزائر واتهامها بالارتداد عن المسيحية.

وصدرت أحكام ببرشلونة كذلك. وفي مجريط سنة ١٦٨٠ م (سنة ١٠٩٠ ـ ١٠٩١ هـ) قدم للمحكمة مسلم من قادس كان اسمه باسم مسيحي وأصبح يدعى لازارو فرنندو. وقد انضم إلى فرضة الجزائر. ولم ينكر الرجل

إسلامه بل أصر عليه، فأعدم حرقاً هو وجماعة أخرى اتهموا بتهم عديدة.

ولم يغفل الديوان المقدّس ولم يتوان لحظة عن أداء المهمة البربرية التي تطوع أفراده بالقيام بها. فقد صدرت أحكام من محاكمه ببلاد الوليد وطليطلة ومجريط وفي قرطاجنة حيث ضبطت جماعة من المتنصرة يصلون سراً بمسجد هناك سنة ١٧٧٩ م سنة ١١٧٣ هـ، ولا تسل عما لاقوه من جزاء وعقاب وحرق.

على أن الديوان كان نشيطاً مجداً في اضطهاد غير اليهود وغير المسلمين، وفي محاكمة المسيحيين أنفسهم لاتهامهم بأنهم حادوا عن الكثلكة، مع أن رجال الديوان كانوا يرمون إلى أشياء أخرى دنيوية محضة لا دخل للدين فيها، وإلى مآرب سافلة في أغلب الأوقات. وقد حاول البابا بول الرابع الرئيس الأعلى وصاحب الكلمة العليا التي لا ترد في شؤون الديوان المقدس وفي محاكم التفتيش أن يستعمل الديوان لتجريد شارل الخامس وابنه من الملك.

وممن اضطهدهم الديوان ورجاله مطران طليطلة بارتلمي كارنزا سنة ١٥٥٧ م (سنة ٩٦٤ هـ) فقد دبّرت ضده المكائد ونصبت له الأفخاخ لما كان يضمر له بعض كبار الأحبار من البغض والحسد. وقد اعتقل في بلد الوليد بمنزل خاص بعد أن قبض عليه في الثاني والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٥٥٩ م(يوافق يوم ٢٤ ذي القعدة سنة ٩٦٦ هـ) لاتهامه بالكفر. وقد لبث في اعتقاله إلى الخامس من شهر ديسمبر سنة ١٥٦٦ م (يوافق يوم ٢٢ جمادى الأولى سنة ٩٧٤ هـ) وحمل إلى روما وهو ضعيف لَقى ليحاكم هناك. وقد أصدر البابا أمره إلى المطران المعذب أن يتوب عن كل آرائه في الكفر والإلحاد. وأن لا يرى آراء تشابه آراء مارتن لوثر. وقضى عليه بالاعتقال خمسة أعوام في دير عينه له يقوم فيها بصلاة عينها. وقد قضى

المطران الهرم نحبه في سجنه في الثاني من شهر مايو سنة ١٥٧٦ م (يوافق ٣ صفر سنة ٩٨٤ هـ). بعد أن قاسى ما قاسى من ألوان العذاب.

وقد حكم على دون ردريجو دي بومون من أمراء نبره (نافارو) من عظماء إسبانيا سنة ١٥٤٢ لعطفه على المتنصرين. وكذلك حوكم أمير البحر لمملكة أراجون سانكو دي كردوفا متهماً بالكفر والزندقة. وقد اعتقل وتوفي بأحد الأديرة وهو شيخ هرم.

وكم حوكم غيره وقضي عليهم وكم وكم؟

واستمر الديوان في جبروته وطغيانه وفسقه وفجوره حتى احتل الفرنسيون إسبانيا وصدر أمر نابليون (سنة ١٨٠٨ م سنة ١٢٢٣ هـ) بإلغائه. ولكنه عاد للحياة في عهد فرديناند السابع ملك إسبانيا الذي أحياه سنة ١٨١٤ م (سنة ١٢٣٠ هـ) وظل في مظالمه حتى سنة ١٨٣٤ م (سنة ١٢٥١ هـ) لما وافق مجلس النواب الإسباني على إلغائه نهائياً في إسبانيا كلها. ولكن بعد أن أتى ما أتى كما تراه في مكانه من هذا الكتاب، وهو شيء قليل مما كان يحدث.

ولقد كان الرئيس تركويمارا يفخر بأنه قضى بأحكامه الجائرة وتفننه في صنوف التعذيب على نيف ومائة ألف نفس أثناء سبعة عشر عاماً التي كان فيها رئيساً لذلك الديوان الدموي.

وحكم الرئيس ديزا في سبعة أعوام على ما يقرب من خمس وثلاثين ألف نفس.

أما كمنيس فإنه اشتد على المسلمين والمتنصرين إذ قضى قضاؤه على إهلاك نيف وخمسين ألف نفس أثناء اثنتي عشرة سنة.

ويقدر ليورنتي وهو خبير بأعمال الديوان ومحاكمه عدد الضحايا من أول عهد الديوان حتى أوائل القرن التاسع عشر بما يأتي:

٣١,٩١٢ شخصاً أحرقوا فعلاً.

١٧,٦٥٩ أحرقت رموزهم أو تماثيلهم.

٢٧١,٤٥٠ وقعت عليهم عقوبات متنوعة ولكنها شديدة.

٣٤١,٠٢١ مجموع الضحايا.

وسواء كان هذا العدد صحيحاً أو كان مبالغاً فيه على رأي البعض أو أقل من الحقيقة بكثير على رأي آخرين، فمما لا شك فيه أن أمثال تلك الفظائع التي كان يأتيها الديوان المقدس، وتلك الأحكام القاسية الجائرة التي كانت تقضي بها محاكم التفتيش وتنفذها هي فظائع ليس لها مثيل في تاريخ كبار المجرمين وطغمة الأشقياء الفاسدين.

ولا يفوتنا أن نذكر في ختام كلامنا هذا أن المصائب التي حاقت بالمسلمين في تلك البلاد إنما كانت جزاء تفرقهم وانقسامهم شيعاً وطوائف. ففشلوا وذهب ريحهم وحاق بهم ذلك العذاب الأليم.

كيف بدأ ديوان التفتيش

١ ـ سجون التفتيش في فرنسا

اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية في مدينة طلوشة (تولوز) سنة ١٣٢٩ م (٧٢٩ هـ) لأول مرة أيام البابا جريجوريوس التاسع اجتماعاً تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم في دينه الكاثوليكي، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد جماعة الكاثوليك، أمثال اليهود والبروتستانت، وجماعة المفكّرين والأحرار والمسلمين الذين كانوا بأوروبا أيامئذ، أيام كانوا بإسبانيا والبرتغال، وكل من يتهم بالإلحاد والزندقة في مسيحيته الكاثوليكية.

ولكن البابا المذكور لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية والعمل بما رآه المجتمعون إلا في سنة ١٣٣٣ م (٧٣٣ ـ ٧٣٤ هـ) ـ فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص بالبحث عمن أشرنا إليهم آنفاً وتقديمهم لمحكمة باباوية خاصة. وخول لكاهن التفتيش الخاص أن يستعين بمن يراه لازماً لمعونته من الجواسيس، وكان يطلق على تلك المحكمة الخاصة الباباوية «الديوان المقدس» أو «التفتيش المقدس». ولم يكن يعرف أُولئك الجواسيس، بل أخفيت أسماؤهم عن الناس ووعدوا بغفران خطاياهم، وأحل لهم ارتكاب الجرائم مهما يكن نوعها ومهما تعقب من عظائم الأمور. فكان المتهم الذي يحضر أمام المحكمة يسأل ويقرر بما يعتقده صراحة عن الكنيسة وعن الدين المسيحي، فإذا أبى الإذعان دفع به إلى معذبين يسومونه العذاب الأليم.

وظل ديوان التفتيش يعمل بفرنسا، تارة جهراً، وتارة في طي الخفاء، تبعاً لآراء الملوك الذين عضدوه، حتى كانت الثورة الفرنسية فتقرر إلغاؤه، وانتقم الشعب من رجاله وهرب بعضهم إلى إسبانيا والبرتغال لينضموا إلى رفقائهم هناك.

ومع أن ذلك الديوان وتلك المحاكم كانت معروفة في فرنسا وإيطاليا وفي بلاد أخرى من أوروبا، إلا أنها لم تعمل بها مثل ما عملت بإسبانيا والبرتغال، ولم تمارس من الفظائع والأعمال البربرية الوحشية مثل ما مارست بجزيرة إيبريا؛ حتى قدر بعضهم عدد ضحايا التفتيش بما لا يقل عن تسعة آلاف ألف من الناس أثناء المدة المحصورة بين سنة ١٣٣٣ وسنة ١٨٣٥ م، حيث ألغي من إسبانيا بعد أن لطخ كل أرجائها بالدم المسفوك في سبيل نصرة الكثلكة والقضاء على مخالفيها.

٢ ـ سجون التفتيش في إسبانيا

يذكر بعض عارفي إسبانيا، أنه يوجد إلى يومنا هذا في عدة مدن بإسبانيا أبنية قديمة غريبة في هندستها وشكلها، تباين ما حولها كل المباينة، كأنها مجموعة من قصور وأديرة وسجون معاً؛ فجدرانها ضخمة ونوافذها قد اعترضها حديد ضخم غليظ قد تصدأ.

وإذا ولجت إحدى هذه الأبنية من الخلف رأيتها مؤلفة من عدة غرف صغيرة يوصل إليها بممر ضيق. ويصل النور إليها من (منور) صغير في سقف كل غرفة، وقد أحكم سدّ المنور بثلاثة أدوار من غليظ الحديد عليها.

ويرى الزائر في أرض الممر فتحات صغيرة كل فتحة تبعد عن الأخرى نحو متر ونصف متر، وقد أحكم سدها بالحديد الغليظ. وقد خصصت هذه الفتحات للمسجونين في الغرف السفلى تحت الممر، أي الغرف التي بالدور الأسفل، ومن تحته طبقات أخرى عديدة تحت الأرض، وهي سجون سرية لا يهتدي إليها إلا رجال المحكمة والسجانون فحسب.

ومهما يكن النهار رائعاً والشمس مشرقة، فإن الزائر لا يبصر شيئاً من تلك الممرات والغرف لشدة ظلمة المكان؛ بل يجب أن يصطحب نوراً يضيء له الطريق. أما الغرف فكانت تطلى بالشحم، ويظهر أن ذلك كان لمنع السجين من تسلق الجدران والهرب، أو عمل أي أثر في الحائط للنجاة. ثم يرى بعض آلات التعذيب في كل مكان، مثل أسواط بها قطع من الحديد الشائك، لجلد المسجونين وإهراء لحومهم من عظامهم ذي كلاليب لانتزاع

اللحم من العظم، وقدور من الحديد لعلها كانت لصهر الرصاص فيها وصبه على المعذبين أو لغلي الماء أو الزيت لمثل ذلك الغرض، ويوجد إلى جانب ذلك مستودع للفحم لا يزال كثير منه إلى الآن بقربها.

ومع أن السجون تلك كانت رطبة، فقد كان الماء يصب فيها على الدوام لكي لا تتشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان المعذبين وتبقى مشبعة بها.

ذلك مثال من أبنية التعذيب التي كانت تدعى بدور (الديوان المقدس) يتولى الرعب والخوف كل من يمر أمامها لمجرد تصوره انه سيدخلها يوماً ما، فكان يتلفت يميناً وشمالاً وإلى خلف، وهو لا يصدق أنه سيجوزها ويتخلّص من منظرها المخيف المرعب.

٣ ـ سجون التفتيش في البرتغال

كان محكمة ديوان التفتيش العامة بالبرتغال، بمدينة لاشبونة، في مكان الملعب الوطني اليوم، وقد شغلت أبنيتها كل الحي، حتى إن أبوابها الخلفية كانت تصل إلى الطريق المؤدي لدير القديس أنطونيو.

وقد بنيت هذه الدار بطريقة تؤدي الغرض من إنشائها، فكانت ذات غرف عديدة وممرات مظلمة تحت الأرض، وفي وسطها أربع قاعات كبيرة فسيحة، كل منها أربعون متراً مربعاً، ويحيط بكل قاعة ثلاثة أروقة، مؤلفة من ثلاثة أدوار، وفي جدران تلك الأروقة أبواب صغيرة، الواحد جوار الآخر كانت أبواباً للسجون المعدة للمتهمين والمعذبين.

وفي الممر الأسفل الذي يحيط بكل قاعة، سجون صغيرة وضيقة، حالكة ومظلمة جداً، أعد لمن كانوا أشد كفراً وضلالاً من غيرهم.

وكانت الأروقة الثلاثة وما بها من سجون تحيط بكل قاعة من قاعات العذاب، عبارة عن ثلاث درجات للتعذيب، تبعاً لذنب المتهم في نظر رجال الديوان وتقديرهم، وما يحكم به عليه من أنواع العقاب.

فمن كانت ذنوبهم خفيفة سجنوا بالسجون العليا، وهؤلاء يصلهم فيها قليل من النور، وكان جلهم ممن قبض عليهم للبحث عن شؤونهم والتثبت من أمورهم لأن الديوان ما كان ليثق كثيراً بأي تهمة تصله ما لم تكن عن طريق أفراده وعيونه الذين عينهم، أما من وشى بهم غير الجواسيس فكانوا يزجون

في تلك السجون العليا. وكان الديوان يسعى للقبض على أعدائه الذين يرغب في التخلّص منهم دفعة واحدة ليقتلهم. وأمثال أولئك المسجونين سجناً احتياطياً كانوا قلائل نادرين جداً. وقل من قبضت عليه محكمة ديوان التفتيش وأدخلته سجونها وخرج حياً منها؛ لأن أولئك المفتشين كانوا يقضون على كل مخالف لدينهم وكنيستهم بالموت، أما من كان معهم فله أن يفعل ما يشاء دون أي مسؤولية ولا عقاب عليه.

وخصصت الطبقة الوسطى من تلك السجون للنساء اللواتي كان رجال ديوان التفتيش يترددون عليهن من حين لآخر. وكثيراً ما كان يتم ذلك للعبث بعفافهن في تلك الدار الموحشة.

وكان لأبواب تلك السجون الفردية عوارض غليظة من الحديد، يظل بها السجين بعيداً عن الباب بطريقة أعدت لذلك، لئلا يحاول الكسر أو الفض. ومع فرض كل المستحيلات، وتمكن سجين من أن يفتح الباب، فإنه يرى أمامه سوراً عالياً طوله خمسة وعشرون متراً؛ يفصله عن السجن خندق عميق عرضه يتراوح بين الأربعة أمتار والخمسة، يطوف به الحراس ليل نهار.

ولا يرى السجين شيئاً ما مما في الخارج ولا يدري ما به، وتدخل إليه أشعة من نور ضئيل وقليل من الهواء ـ لئلا يختنق ـ من فتحة صغيرة في أعلى الباب. وكل غرفة لا تزيد على مترين طولاً ومثلها عرضاً، ولا يمكن أن يتصور الإنسان ما بها من ظلام خصوصاً سجون الطابق الأسفل، ولا سيما إذا لاحظت أن الممرات التي يستمد منها السجين النور مظلمة ظلاماً يحتاج السائر فيها إلى مصباح إذا كانت الشمس في رابعة النهار.

وكان ذكر تلك السجون يلقي الرعب في قلوب أشجع الشجعان.

وقد كان يرى المتأمل إلى جانب تلك السجون والمطابق المتصلة بقاعات ديوان التفتيش الغرف الفسيحة والأبهاء الفخمة توفر فيها كل ألوان

الرفاهية والنعيم المقيم، فيها أفخر الرياش يتقلب عليها رجال المحكمة المقدسة في الدمقس والحرير، وبها المقاعد الوثيرة المريحة، يأكلون ما لذ وطاب ويحتسون معتق الخمور ولذيذ الأنبذة، يسكرون ويطربون على أنغام ما يصدر من فرائسهم في هذا الديوان المقدس من أنين وعذاب أليم.

٤ ـ السجين في مطبقه

لم يكن عند السجين سوى قطعة من الخشب طولها متران وعرضها متر ونصف المتر تكون سريره على الأرض، ويعطى له غطاءان من الخيش يفترش واحداً ويغطيه الآخر، وتعطى له قرميدة أو قطعة من البلاط تكون وسادة له ويترك له إناءان، يحوي أحدهما ماء للشرب ويحفظ بالثاني بوله وبرازه، ويترك له إناء آخر للزيت يضع منه في المصباح الذي يلزم بإضاءته ليل نهار. وكان ذلك الأثاث لمن كانوا في الحبس الاحتياطي وكان ذنبهم صغيراً، أما من عداهم فلا.

وسبب إلزامه بإضاءته ليل نهار، لكيلا يميز الليل من النهار. وكان يستعاض في سجون إسبانيا عن المصابيح الزيتية بشموع، ليذكر السجين بأنه أصبح في عداد الأموات الذين توقد لهم في غرفهم الشموع. لشدة النكاية بهم وهم أحياء، ولازدياد الرهبة في قلوبهم فيلتزم الهدوء والسكون. ولم يكن يسمح للسجين برفع صوته حتى لو كان يصلي، بل يجب أن يلتزم الصمت التام؛ والويل كل الويل لمن خالف ذلك أقل مخالفة.

وكان يفرض على كل سجين منهم قرش واحد في اليوم، فإذا ما انتهى الشهر طاف السجان بالسجناء يجمع منهم تلك القروش، ويسأل كل واحد منهم ماذا يرغب أن يفعل بها في شهره القادم، وماذا يريد من مأكل مثلاً؟ وإليك إجابته على قبيل المثال:

(١) تسعة قروش ليقدم له كل يوم صحن مرق لحم ساخن. (٢) ثمانية

قروش ثمن خبز. (٣) أربعة قروش ثمن جبن. (٤) قرشان ثمن فاكهة. (٥) أربعة قروش ثمن نبيذ.

والباقي وقدره ثلاثة قروش لغسل ثيابه، وكان يصحب السجان كاتب يدون مطالب السجناء كل على حدة، فيقدم للسجن كل ما أملاه على الكاتب وما أبداه من رغبات مع تقديمها تماماً في مواعيد مضبوطة.

أما إذا جاء أمر من الديوان بإلغاء شيء منها أو بإلغائها كلها، فلا يعطى شيء ما، وإذا ما قرّر المجلس شيئاً للسجين من الأطعمة فيجب على الكاتب والسجان أن ينفّذا ذلك بكل دقة، وإلا نالهما من العقاب الصارم ما يجعلهما عبرة لغيرهما، لأنهما لم ينفّذا أوامر المحكمة المقدسة، وكان رجالها يعدون أنفسهم نواب الله في أرضه.

أما من كان يستزيد في المقرر من طعام وخمر، وكان جلهم من الغرباء، فكان يجب عليهم أن يتقدّموا لرجال الديوان ويشافهونهم بطلباتهم وحاجاتهم فيستمع لهم رجال الديوان وينصتون وتجاب الطلبات غالباً ما لم يكن منها ما يضر بالصحة، وكانوا يقصدون بذلك أن يطيلوا آجالهم لتنفذ فيهم مشيئة المحكمة المقدسة، ولا يدعونهم يموتون من مرض تسبب عن طعام أو شراب.

وكان محظوراً على السجين أن يكلم أحداً أو أن يرفع صوته سواء كان من الآلام أو للصلاة أو لاستغفار الله أو للترتيل أو للغناء أو لأي سبب آخر، فكأنما قد انقطعت صلته بالعالم بأسره انقطاعاً تاماً، ومن خالف تلك الأوامر عرض نفسه للعذاب وللقصاص الأليم.

وكان حراس السجون ورجال النظام في تلك السجون المظلمة ينقلون لرجال الديوان المقدس كل ما يحدث فلا تخفى عليهم خافية.

وكانت الممرات التي بها أبواب السجون ملأى بالسجانين يستمعون لمعاشر البائسين في المطابق ويأمرونهم ألا يرتكبوا ما يحرمه رجال التفتيش

عليهم مرة، فإذا عاد أحدهم وارتكب مخالفة (على حد تعبيرهم) صدر الأمر بإرسال السجين إلى حضرة رجال المحكمة، ويخرج المسكين أمام بقية المسجونين، فإذا مثل أمام المحكمة أصدرت حكمها بسرعة بتأديبه وتعذيبه، فيرسل إلى قاعة التعذيب، فيصيح من شدة الآلام التي يقاسيها حينئذ ويصرخ فإذا ما سمعه رفقاؤه في السجن ملئوا رعباً واشتد بهم الحزن والغم.

وكان محظوراً على السجين الاتيان بحركة أو الكلام وهو في سجنه منعاً باتاً، حتى إن أحد المسجونين أصيب بالسل بعد أن قضى زمناً طويلاً في عذابه وسجنه الرطب الموحش المظلم، فأخذ يسعل رغم أنفه، فأنذروه بألا يعود إلى السعال بعد، فأجاب وهو خاشع ذليل أن هذا رغم إرادته، وأنه لا يمكنه الانقطاع عن السعال، واشتد عليه المرض فأكثر من السعال، فاقتيد إلى المحاكمة فقضت فيه بحكمها العسوف، وكان يقضي بضربه بالعصى فضرب، حتى سقط بين أيدي معذبيه القساة واستراح من تعاسته وحياة السجون والعذاب. والذي روى هذا شاهد عيان اتهم بأنه من أحرار البنائين (الماسون)، وسجن عام ١٧٤٣ م (سنة ١١٥٦ هـ).

٥ ـ ديوان التفتيش في بلاد البرتغال

بدأت محاكم التفتيش تباشر فظائعها ببلاد البرتغال حوالي سنة ١٥٤٧ م (سنة ٩٥٤ هـ) أيام الملك جوان الثالث، أعني عندما ابتدأت الأسرة المالكة هناك في الانحطاط، على أنا نرجو ألا يفهم من هذا أنه لم يكن هناك اضطهادات دينية عديدة وقعت على الناس في بلاد البرتغال وبلاد إسبانيا قبل ذلك التاريخ، فكل من درس تاريخ تلك العصور المظلمة يعلم شدة غلو الملك فرديناند في تعصبه للمذهب الكاثوليكي والذي كان يقول كلمته الشهيرة وهي:

«يجب أن تكون إسبانيا إما كاثوليكية أو إسلامية».

ويعني بذلك أنه يجب أن تدين البلاد بدين واحد وهو الكاثوليكي طبعاً، ويجب ألا تدين بدين آخر.

أما في بلاد البرتغال فقد أدخل الملك جوان الثالث ذلك الديوان الخاص المعروف بقسوته وعتوه في محاربة من خالفه، ونعني بذلك الديوان ديوان التفتيش أو محكمة التفتيش.

وكان ذلك الملك يأتي إلى ساحة المدينة التي كان يحرق فيها من حكمت عليهم محاكم التفتيش بالحرق والعذاب، وكان الملك يصحب الملكة والوزراء ورجال الدولة وكبار رجال الدين، فيتبوءون مجالسهم في مكان مرتفع مزين أحسن زينة ليمتعوا النفس بمناظر التعذيب وحرق إخوانهم في البشرية وهم أحياء. ويعيدون تمثيل رواية أصحاب الأخدود الذين قال الله فيهم (قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود).

٦ ـ وصف حفلة حريق

وإليك وصف حفلة من تلك الحفلات الوحشية: كان يتقدم الموكب كاهن يرتدي حلة بيضاء ويحمل صليباً أسود في يده، يترنم بترانيم الموت. ويمر أولاً أمام عرش الملك ويعود فيقف في الساحة. ثم يأتي فريق آخر من الكهنة بثياب بيضاء وصلبان سوداء ـ وكانت رمز ديوان التفتيش ـ ويترنم الكهنة ويمرون أمام العرش ثم يقفون ثم يمر فريق من الشعب وهم يرتدون ملابس بيضاء بصلبان سوداء أيضاً، فيفعلون كما فعل من سبقهم، ثم يمر المحكوم عليهم بالحرق وقد غطتهم القاذورات والطين والأوحال التي قذفها عليهم متعصبة الشعب ظانين أنهم يمجدون الله والدين بقذفهم أولئك المعذبين.

وكان يحيط بهؤلاء السجانون وجنود الديوان والرجال المنوط بهم إجراء التعذيب. فإذا ما وصل السجناء إلى الساحة أصعدوا إلى أكوام من الحطب عالية، وفي وسط كل كوم صليب مثبت لكي يموت المعذبون وهم ينظرون إلى تلكم الصلبان. ثم يرتقي رئيس المحكمة لذلك الديوان مرتفعاً عالياً أقيم في وسط الميدان وكان يدعى (ساحة ريبرا). ويأخذ في تلاوة صورة الحكم على معاشر الزنادقة الكفار! بصوت جهوري وهو يقول: إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالاً ونساء، لأنهم يهود، أو من المسلمين، أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكي، وأنهم قد استخفوا بالأحكام المقدسة. وأنهم قد اتخذوا الشيطان عدو البشر ولياً وحقّروا الكنيسة وهم لا يأتون ثمراً. لذا وجب قطعهم وحرقهم بالنار عملاً بقول السيد المسيح له المجد: «من ليس معنا فهو علينا،

وان كل شجرة لا تثمر وجب قطعها وإلقاؤها في النار. إن الذنب ذنبهم ودماؤهم على رؤوسهم».

وبعد أن ينتهي من تلاوة ذلك الحكم يصرح أحد الكهنة باللاتينية وهو يقول:

المجد لسيدتنا والدة الإله ومبارك كل مؤمن وطائع.

وعندها يمد الناس أيديهم لأخذ البركة.

ثم يتقدم هذا الكاهن لآخر مرة من المجرمين، وبيده صليب من العاج. ويعرض عليهم التوبة وتقبيل الصليب، فمن أبى لعن لعنة أبدية، وإذا ما ساوره الخوف وقبل الصليب ووعدهم بأن يبوح إليهم بأسماء غيره ممن يبحث عنهم الديوان، وأن يصرح بما يفكر هو به ويعلن لهم توبته واستغفاره، فعندئذ يعاد إلى السجن مرة أخرى ليتثبتوا من توبته. ويقال: انه ندر من خضع من أولئك المساقين للموت. وعندها يصدر الأمر إلى جلاديهم بإضرام النار، فيعلو صراخهم وعويلهم وتتصاعد روائح شيّ أجسادهم في الجو، وكثيراً ما كانت جسومهم تظهر وهي تحترق سوداء. وتظل النيران مشتعلة ثلاث ساعات بلا انقطاع والشعب يرقص حولها والكهنة يسبحون، حتى تستحيل بقايا الحطب والجثث رماداً فينصرف الملك وحاشيته تشيعهم دعوات الشعب وبركات القساوسة.

وكانت جواسيس التفتيش تنتشر في كل مكان وفي كل بيئة وعددهم ألوف مؤلفة، وكان منهم كهنة وأطباء ومعلمون وكلهم جاد في البحث عن أعداء الكنيسة الكاثوليكية وأعداء رجالها. فإذا ما وقع مسكين في قبضتهم زج في أعمق السجون ويترك فيه وربما تنوسي أمره، فيلبث فيه إلى أن يشاء الله والويل لمن يسأل عنه وهو لا يعلم لماذا سجن إلا إذا وقف أمام محاكم التفتيش وبدىء في تقريره وسؤاله.

وكان رجال الكنيسة ينظرون إلى الاعتراف نظرة ذات مغزى وغرض

بعيد. لأنهم كانوا بواسطته يقبضون على أعدائهم ومناوئيهم، وقد أمكنهم أن يجعلوا من الابن جاسوساً على أبيه في حركاته وسكناته، والأب على ابنه والزوج على بعلها، فمن عرف شيئاً ولم يبلغ عنه عد شريكاً في الزندقة والمروق عن الكثلكة واستحق صارم العقاب تبعاً لإحدى مواد قانون الديوان المقدس. وكان الصمت في عرفهم يعدل العمل ضد الديوان جرماً، وبذلك أوجدوا في كل دار وبين كل أسرة جواسيس لهم ينقلون إليهم أسرار المنازل والبيوت وما يدور بين أفراد الأسرة من أحاديث وأسرار تلك الأسرة.

وقد ذكر أن أحد النبلاء أولم لبعض أصدقائه الأخصاء مأدبة، وكان يعد كل واحد منهم الآخر عدل نفسه وفياً مخلصاً، ولما أديرت بينهم بنت الحان وغابوا عن وعيهم من شدة السكر والعربدة ولم يعِ كل ما يقول، عندئذ تفوه أحدهم بعبارات كانت تعتبر جريمة عند رجال الديوان، فلما كان اليوم الثاني تغيب ذلك المسكين عن أنظار عارفيه وأصحابه الذين علموا بعدئذ أنه أخذ إلى سجن التفتيش وكان بعض المدعوين قد نقل ما قاله إلى رجاله.

وحدث أن امرأة نامت وطفلها في سرير وإلى جوارهما كان ينام الزوج، فتلفظ هذا المسكين بألفاظ مبهمة وهو غارق في نومه فما كان من زوجه إلا أن أسرعت لأحد قساوسة التفتيش في الكنيسة المجاورة لهم، وكانت الكنائس لا تغلق أبوابها ليل نهار وتلبث مضاءة، وأخبرت البلهاء ذلك الكاهن بما حدث وأن زوجها يتكلم وهو نائم بكلام مبهم لا يفهم، وبعد أن فرغت من اعترافاتها أخذت تصلي بالكنيسة برهة ورجعت إلى دارها ولم تر زوجها المسكين في سريره وإذا به قد حمل إلى سجون التفتيش لمحاكمته وتبيان ما يقول وما كان يحدث به نفسه وهو في سريره.

ومن قبض عليه وكان ذنبه صغيراً لاطفه رجال التفتيش وحولوه إلى جاسوس لهم ينقل إليهم أخبار الغير، ومن عرفوا أنه من هذا القبيل أطلقوا سراحه في الحال خشية أن يوضع في المطبق فيختل عقله من هول ما يرى.

ويقال: ان كثيرين مما نزلوا في ضيافة تلك السجون المظلمة كانوا يفقدون عقولهم فيها ويقضون نحبهم داخل تلك المطابق لما يشاهدونه من آلات التعذيب ومن مناظر تدخل الرعب في النفوس. وإذا سيق المذنب للمحاكمة جاءه نفر قد ارتدوا أردية سوداء وتقنّعوا بقناع أسود تظهر خلفه عيونهم وكأنما أحاط بالمتهم الشياطين، وإذا ما وقف أمام رجال المحكمة بدىء في استجوابه فيسألونه أسئلة وهم يلزمون السكون ويتأملون أوراق الاتهام طويلاً ويضعون أمامهم على المائدة صليباً من العاج، يأمرون المتهم أن يديم فيه النظر أثناء محاكمته، ويدعون عدداً من الجند والجلادين وطبيباً لفحص المسكين وجس نبضه إذا أمروا بعذابه، ولكي يقرر رأيه عن حالته الصحية وما ينتظر أن يحتمله من العذاب وليعترف إذا شاء عمن يعرف عنهم شيئاً من معارفه ورفقائه.

وقد وصف لنا المؤرخ دون جومس دا سيلفا مذبحة (سنة ٩١١ ـ ٩١٢ هـ سنة ١٥٠٦ م) التي حدثت في الأشبونة حاضرة بلاد البرتغال أيام الملك مانويل الأول، وكانت السبب في إدخال ديوان التفتيش إلى تلك البلاد. وهذا الوصف في كتابه المسمى أسرار ديوان التفتيش.

٧ ـ مذبحة الأشبونة

وملخص ما جاء فيه: أن تلك المذبحة حدثت في يوم الأحد العاشر من شهر إبريل سنة ١٥٠٦ (الموافق ١٦ ذي القعدة سنة ٩١١ هـ) وكان يوم عيد الراعي الصالح قال:

لما أصبح الصباح على مدينة الأشبونة العاصمة أخذت أجراس كل الكنائس تصلصل صلصلة متواصلة بطيئة تدخل على النفس الحزن وتبعث الانقباض في الصدر رغم جمال ذلك اليوم وشمسه الرائعة وصفاء سمائه وزرقتها الجميلة، وكان يوماً من أيام الربيع البديع.

وإذا ما نظر إنسان إلى العاصمة من التلال المحيطة بها رأى بحراً متحركاً من الرؤوس البشرية، وهم جموع غفيرة من الأهلين، جاؤوا ليحضروا ذلك الاحتفال الديني وقد اعتم كل بعمامة تباين عمامة الآخر وتعصبوا بعصابات مختلفة متنوعة فمن اعتنق المسيحية وهو مرغم كانت عصابته حمراء وهؤلاء أجبرهم ديوان التفتيش على الكثلكة وكانوا من اليهود والمسلمين من بقايا الفتح الإسلامي ومن كان من أصل مسيحي كانت عصابته أو قبعته بيضاء أو من غير ألوان. وأجبر ديوان التفتيش بعضاً من المسلمين واليهود على حضور تلك الاحتفالات وكانوا في حالة يرثى لها وتتفتت لها الأكباد من الذل والهوان.

أما جماعة المفكرين الأحرار الذين كانوا يعدون في نظر الكنيسة زنادقة فجرة لأنهم كانوا لا يؤمنون بالكنيسة ولا يوافقونها على إتيان تلك الأعمال

الوحشية الفظيعة أولئك الأحرار قد هربوا واختبأوا خشية جواسيس التفتيش أن يقبض عليهم بوشايتهم ويكون موتهم وهلاكهم محققاً محتماً في مثل ذلك الاحتفال.

وكان ذلك البحر الزاخر من الشعب، يموج ويعلو كالأمواج، ويرتطم عند أبواب الكنيسة الكبير وهناك أقيم حوض كبير من الرخام فيه الماء المقدس، فكان الناس يغمسون فيه أيديهم ويرسمون به إشارة الصليب على جباههم، ثم يتراجع فوج ليحل محله فوج آخر للغرض عينه.

وكان يشاهد وسط ساحة البيعة الكبيرة أعيان الشعب ورجال الدين وقد اصطف الحرس عن يمين وشمال، وكانوا من طبقات الأشراف بشعورهم المذهبة وملابسهم الزرقاء المخملية.

وأقيم مذبح كبير وسط تلك الساحة العظيمة وقد غطي بالمخمل المذهب أما الأبنية التي عليه فكانت كلها من الذهب والفضة والبلور. كل ذلك لكي تبهر عيون الشعب إذا ما وقعت عليها أشعة الشمس. وأقيم وراء ذلك المذبح وسط الساحة صليب كبير جداً عليه صورة المسيح مصلوباً، وكأنما هو يستعد لقبول توبة الخاطئين والكفرة ومن لم يكن مسيحياً ولا يؤمن بأعمال الكنيسة، وإلى جوار ذلك الصليب أقيمت منصة عليها آثار القديسين مثل عظام وصور قديمة، وقد زينت بالأحجار الكريمة، ولها إطارات من الذهب والفضة المصقولة الخالصة لها لمعان شديد في ضوء الشمس فتضيف إلى المنظر هيبة ووقاراً وأبهة.

واجتمعت جماعات من الشعب داخل الكنيسة وخارجها، وأخذ يحدث بعضهم بعضاً عما كان ديوان التفتيش قد أزمع إجراءه في ذلك اليوم المنحوس وكان في وسط المذبح نجمة كبيرة أسموها نجمة المؤمنين أحدثت فيها أشعة الشمس لمعاناً يبهر الأنظار يحدث ألماً شديداً في عيون الناس المجبورين على التطلع إليها دائماً.

وصاح جاهل متعصب من الشعب عندما نظر إلى تلك النجمة اللامعة وأعجب بها وصرخ بأعلى صوته قائلاً: عجباً عجباً.

وأخذ الآخرون يرددون نداءه وكان كالرعد القاصف وأخذوا يصيحون عجباً. عجباً. الويل للزنادقة.

وقال الكهنة:

عجباً عجباً. أظهر مجدك يا رب، وبارك المؤمنين. وأخذ الناس يقرعون صدورهم، فصاح الكهنة قائلين:

اركعوا يا أهل الأشبونة اركعوا فقد أشرق نور السيدة العذراء.

وجاءوا بالصلبان من داخل الكنيسة وصاح أحد الكهنة مخاطباً تلك الجموع:

إن النور الذي ترون ليس بنور السيدة العذارء، ولا هو من نور الله بل هو نور الشمس وانعكاس أشعتها، وقد قالت السيدة إنها لا تشرق من نورها علينا لوجود كفرة بيننا لا يستحقون مشاهدة النور الإلهي، فأرجو الله أن يزيل أولئك الكفار عنا ومن بيننا. هيا ارجوه.

فصاح الشعب المتعصب كأنه رجل واحد وبصوت كصوت الرعد قائلاً:

الويل للزنادقة. الويل للكفرة.

ثم نهضت تلك الألوف المؤلفة وسارت في موكب كبير وأخذوا يصيحون بالويل والثبور وعظائم الأمور وبالقتل لكل اليهود والزنادقة والكفرة والملاحدة. واجتمع الشعب على يهودي، فقتلوه شر قتلة واعترض معترض عليهم فاستعملوا الخناجر بمهارة في جسده، واشتد اللجب والصراخ، وسار الكهنة في مقدمة الجماهير تصحبهم صلبانهم وراية الخلاص لكي يؤججوا من حماسة الشعب المتعصب الجاهل. وأخذت المذبحة تمتد رويداً رويداً على أنحاء المدينة وأخذ كل من يتوقع شراً في الهرب من الموت، فكانوا إذا

وصلوا إلى البيعة الكبيرة ليحتموا بها طاردتهم القساوسة حاملي الصلبان. فكان لا بد من وقوعهم فريسة للموت بيد الشعب الهائج.

ولما انتصف النهار كانت الطرق والميادين ملأى بالجثث وقد وضعت في أكوام مكدسة، وسار المنادون من قبل ديوان التفتيش وهم يستنهضون الشعب لقتل اليهود ولكل مقاوم للكنيسة، وهم يباركونهم إن هم فعلوا ذلك وكانوا يقولون: الويل لهم انهبوا، ومن لا ينهب معكم فأحرقوه بالنار. وقتل الشعب الهائج النساء وقد حملوا أطفالهن وقتلوا معهن تلك الأطفال البريئة، وكانوا يدخلون إلى البيوت ليقضوا على فرائسهم، ثم كانوا يحرقون دورهم مع الجثث التي فيها. وحاول بعض النساء تخليص أطفالهن برفعهم فوق رؤوسهن، ولكن أين أين الخلاص والموت الزؤام واقف لهم بالمرصاد فالشعب ثائر وكهنته تستحثه لارتكاب الفظائع التي تقشعر من ذكرها الأبدان.

ولما جاء الليل وأرخى سدوله امتدت المذابح والكهنة كالضباط يقودون الشعب لارتكاب المنكرات، وهم يحملون معهم تمثال العذراء وينشدون بعض أناشيد دينية باللاطينية، ويرد عليهم الشعب وهو يرتل لازمتها بلغة ولهجة مستنكرة، أضف إلى ذلك صلصلة الأجراس المتوالية ورائحة الاجساد المشوية التي كان يحملها دخان الحرائق.

واستمرت المذبحة اليوم التالي وفي ليله، ثم اليوم الثالث والحالة تزداد سوءاً حتى اضطرت الحكومة للتدخل فبعثت جنداً ترد السفاكين، وأعدمت بعض المذنبين شنقاً، وإن يكن قد بقي غيرهم استمروا في مذابحهم.

ثم رأى الكهنة أنه لا يجوز للشعب أن يقتل الكفرة بيده من غير محاكمة فسعوا لتأسيس محكمة ديوان التفتيش في البرتغال، وبعد بحث في المسألة رضي الملك جوان الثالث بتأسيس ذلك الديوان في بلاد البرتغال.

مطاردة ديوان التفتيش للمسلمين واليهود

تمهيد

لو أنك قلبت صفحات التاريخ فلعلك لست بواقع على صحف أسود من صحف ديوان التفتيش. ولست تعثر بمن هو أشد قسوة وأغلظ قلباً وأبعد عن الرحمة والإنسانية من رجال هذا الديوان. ولن تجد من هم أقرب إلى الوحشية والبربرية وارتكاب الموبقات والمعاصي من تلك العصابات الآثمة الخاطئة، تلك العصابات التي استغلت اسم الدين المسيحي لترتكب من الجرائم، وتأتي من المنكرات البشعة ما يذيب القلوب الرحيمة، ويفتت الأكباد، تلك الجماعات الإجرامية التي استترت خلف اسم الدين، لترتكب أبشع الفظائع من قتل وتعذيب وهتك أعراض وجمع للسحت من الأموال واغتصابها بكل طريقة يعرفها المتلصصة من الناس وبطرق تفنّنوا هم في تنفيذها حتى بزوا بها كبار اللصوص ورؤساء عصابات السفاكين والقتلة المجرمين، وكانوا هم المبرزين في كل ما يحمر له وجه الإنسانية خجلاً من ارتكاب كل ألوان البغي والفسوق والإثم والعدوان، تلك الجرائم التي لا يقرها عليهم من كان له ذرة من العقل أو كان على شيء ولو يسير من الإنسانية الحساسة.

لقد كانت تلك العصابات ـ التي دعت نفسها برجال التفتيش ـ أدنى من البهائم العجم فهماً لشيء يعرف بالإنسانية والشفقة، وكانت تلك العصابات تبيح لأفرادها التفنن في أعمال القسوة وابتزاز الأموال والاستيلاء عليها والفتك

بالأعراض بدرجة لا تباريها فيها أكبر عصابات القتلة المجرمين منذ عرف تاريخ الإجرام حتى اليوم.

وإن تعجب فعجب من تلك الجماعات الخاسئة وقد أرادت أن تحجر على العقول فلا تفكر إلا بمثل ما يفكر به أعضاؤها وأرادت أن تحتكر أعمال العقل فيما يعرض للإنسان في حياته فمن رأى رأياً مخالفاً لرأي الكنيسة في زعمهم - أو لرأي تلك العصابات التفتيشية في الواقع - عوقب أشد العقاب ومثل به تمثيلاً فظيعاً تأباه الإنسانية ولا يفكر في إتيانه من عنده شيء من الرحمة والشفقة. ولكن أين تلك الرحمة والشفقة من أولئك الغلاظ القلوب الذين أرادوا أن يخضعوا كل شيء لإرادتهم وكل إنسان لمشيئتهم وكل العقول والأفهام لآرائهم ومعتقداتهم؟!

بل أين تلك الرحمة والإنسانية والشفقة، وقد كانوا يعاقبون بالظنة ويأخذون بالشبهة ويحرقون الأطفال، ويرهقون الشيوخ والعجزة والنساء الضعيفات بصنوف العذاب وألوان الاضطهاد وشتى الوسائل الجهنمية من الإجرام؟!

لقد ادعوا المسيحية ولا نعتقد أن ديناً سماوياً يرضى بشيء مما أتوه، وانتسبوا لدين عيسى ابن مريم وحاشا أن يكون عيسى قد أوصى بتلك الفظائع والجرائم فإنما كان يدعو للمحبة والسلام.

ونحن نجزم ونصرح بأنهم لم يكونوا إلا عصابات إجرامية أرادت أن تستغل روح الجهل والعماية التي كانت ضاربة أطنابها في العصور التي قامت فيها.

ويكفي أن تعلم أن تلك العصابات قد ظهرت أثناء القرون الوسطى التي عرفت بعصور التعصب الديني المذموم تلك القرون التي حدثت فيها الحروب الصليبية الممقوتة إذ كانت تساق فيها الجيوش والجماعات المتحمسة لدين القساوسة والرهبان الذين جعلوا أنفسهم للناس أرباباً من دون الله - المتعصبة

لعقائدها النصرانية لغزو البلاد الإسلامية ولاستخلاص بعض أجزائها ـ فلسطين الأرض المقدسة في عرف الناس من يد أصحابها المسلمين، بحجتهم الواهية الكاذبة ـ اضطهاد زوار القبر المقدس والأماكن المقدسة وبدعوى صد المسيحيين عن زيارتها والتبرك بها.

قامت تلك الحروب الصليبية في القرون الوسطى واستمرت زمناً طويلاً وقروناً وهي تتشكل حسب الظروف والمناسبات بل حسب أهواء رجال الكنيسة ومآربهم الشيطانية وتتسمى بأسماء عدة حتى إن بلاد فلسطين والقدس لما سقطت في يد الإنجليز أثناء الحرب الكبرى الأخيرة صرح القوم بأنها نهاية الظفر وخاتمة الحروب الصليبية.

ومعنى هذا أن الحرب الأخيرة التي دارت رحاها في الشرق إنما كانت حرباً صليبية كالتي دعا إليها بطرس الراهب أثناء القرون الوسطى.

وفي كل زمان ومكان تُستغَل الجماهير الجاهلة بواسطة الدعايات المجرمة أياً كان شكلها، وتأتي أفراد أو تظهر جماعات، أو حكومات، لاستغلال روح الجماهير الذين هم أتباع كل ناعق في الزمان المناسب وينظمون أعمالهم ويرتبونها وفق تلك الروح الشريرة المستغلة لا لصالح الجمهور ولكن لمصلحة الأفراد وشهوات الداعين والجماعات المرتزقة المنتفعة.

فان كانت روح العصر سياسية ألهب تلك الأفراد أو تلك الجماعات الدعايات السياسية في نفس الجمهور الساذج ودفعوه إلى المطالبة بكذا والابتعاد عن كذا من المطالب، وانتفعوا هم من غفلة الجمهور بكل وسيلة وبكل ما يمكن أن تصل إليه أيديهم من أسلاب وأنهاب من ذلك الجمهور الذين تولوا هم قياده وورطوه في مواقف وزجوا به في مشاكل. ولا يلبث ذلك الجمهور والشعب المسكين أن يقع في كارثة من جراء اندفاعه، وعندها يتخلى عنه قواده وزعماؤه وأبطاله بعد أن يوردوا ذلك الشعب مورد الهلاك.

وإذا كانت روح العصر دينية قام أفراد فيه أو جماعات ودعوا باسم الدين وأسبغوا على أنفسهم ما يزين في عقول الجماهير باطلهم، وكبروا الأكمام ونفخوها وأطالوا القلانس وتزيوا بزي الشياطين وارتدوا من الطراز ما يستغفلون به الشعب لا حباً في الشعب ولا طمعاً في ثواب أو خوفاً من عقاب؛ ولكن لقاء مآرب دنيوية سافلة وأمور شخصية وغايات نفسية دنيئة، وليتردّ الشعب في الهاوية ما يتردّى، وليهو إلى أسفل سافلين ما يهوي ما داموا هم قد أشبعوا بطونهم وملأوا جيوبهم وأمتعوا هم أنظارهم وقضوا هم لفروجهم لذاتها. وما داموا قد سكنوا هم القصور ووطئوا على الدمقس والحرير وشربوا من الشراب ما يحلو لهم وما يلذ وأكلوا من الطيبات ما اشتهوا وطيف عليهم بصنوف الطعام الشهي والفاكهة ألواناً.

فلا يهمهم أن يشقى الشعب إذا هم سعدوا ولا يعنيهم أن يلحق به البؤس إذا هم تنعموا.

١ ـ كيف نشأت عصابة التفتيش

ذكر المؤرخون بدء أعمال تلك العصابات التي أخذت على عاتقها أن ـرد عن النصرانية أخطار الإلحاد والكفر والزندقة وأن تصد عن النصارى مصائب خافوا أن تحيق بهم فقالوا إنه قد قامت في مدينة ألبي إحدى مدن فرنسا الجنوبية جمعية سرية للعمل ـ في نظر رجال الكنيسة ـ على هدم الدين وبث الإلحاد في عقول الناس ونسبت تلك الجمعية الى المدينة التي ظهرت فيها فسمي أعضاؤها بالألبيين Les Albigemces .

ولقد كان الحافز لهذه الجمعية على القيام بعملها ما كان قد غلب من سلطان القساوسة، واستخدامهم هذا السلطان الروحي في إفساد المجتمع وقتل روح النشاط فيه.

فرأى البابا إنوسان الثالث أن يعمل على هدم تلك الجماعة التي زعزعت العقائد وكادت تقضي على تعاليم الكنيسة وسعى البابا المذكور إلى محاربة الألبيين، وكان ذاك في أوائل القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد. وكانت حروب جنوب فرنسا قضي فيها على تلك الجمعية الهدامة للدين ولتعاليم الكنيسة.

ولما رأى أحبار الكنيسة ما قد حدث رؤي أنه من الحزم أن تنشأ قوة منظمة لمقاومة الإلحاد والزندقة وعهد البابا إلى الآباء الدومنيكيين بتلك المهمة لمطاردة الكفرة والزنادقة في نظرهم وأن يعملوا على عقابهم مستمدين العون

من ذوي النفوذ المدنيين ومن العظماء في ذلك العصر. وكان ما كان مما تراه بعد.

وقد أُنشئت تلك المحاكم التفتيشية في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وفي مملكة أراجون وبلاد البرتغال. وقد جد الديوان حتى قضى على جمعية «الألبيين» واشتدت المحاكم على المتهمين بالزيغ عن عقيدتهم الكاثوليكية.

٢ ـ جمعية الألبيين

قضت محاكم التفتيش وطرها من تلك الجمعية الملحدة ـ في نظر رجالها ـ ووجهت اهتمامها إلى القضاء على اليهود والمسلمين.

ويقال: ان الكنيسة قاومت جماعة الألبيين زهاء قرنين.

إلا أنه مهما قيل في مطاردة الألبيين فليس ذلك بالشيء المذكور بالنسبة إلى مطاردة المسلمين واليهود، وقد استغرقت زمناً أطول وكانت صنوف العذاب تتجدد، وكان الذكاء البربري المتوحش موجهاً إلى التفنن في اختراع وسائل جديدة من سبل التعذيب والمطاردة، وكانت عصابات التفتيش قد كلبت لمقاومة الخصوم واشتدت عليهم لما عرف عنهم من غنى وثروة وما طمعت فيه تلك العصابات المنسوبة للمسيحية ظلماً مما كان للمسلمين واليهود من أرض وضياع ونقود وجواهر، كما طمعوا في أعراض نسائهم وبناتهم وتسابقوا إلى القبض على كل من يقع في أيديهم فريسة، وتفننوا في عقابهم وأخصبت أدمغتهم واستعملوا ما بها من ذكاء لضرر الناس الآمنين الوادعين، وتحولوا إلى اليهود في الأراجون واتحدت مملكة الأراجون مع قشتالة سنة ٨٨٤ هـ (سنة ١٤٧٩ م) وكان فرديناند الكاثوليكي المتعصب ملكاً على الأولى وإيزابيلا الكاثوليكية الملكة على الثانية وقد وقعت الملكة تحت تأثير (توماس دي ثركو يمادا) أحد الرهبان الدومينيكيين وكان قسيساً لها قبل أن تكون ملكة. وحملها يوماً على أن تعده بتكريس حياتها لاستئصال (الكفرة) إذا هي وليت الملك. وقد عرف عن ذلك الراهب تعصبه وبغضه الشديد لكل من خالف الكثلكة وكان يرى كل وسيلة واجبة لاستئصالهم.

وانقادت الملكة إلى إرشاداته وأقنعت زوجها واستصدرا أمراً من البابا لإنشاء ديوان مقدس في قشتالة فلم يتأخر سكستوس الرابع عن إصدار أمره في شهر رمضان سنة ٨٨٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٧٨ م). ثم أنشىء ديوان في إشبيلية في شهر رجب سنة ٨٨٥ هـ (سبتمبر سنة ١٤٨٠ م).

وكان الديوان يرتاب في سلوك متنصرة اليهود[١] الذين اضطروا إلى اعتناق الكثلكة فراراً من القتل والتعذيب والأذى. وكانت الكنيسة تستند على شيء من مظاهر الحياة العادية لاتخاذها أدلة على الزيغ والمروق.

فكان كل يهودي متهماً إذا ما ارتدى يوم السبت ثياباً نظيفة أو أحسن مما كان يرتدي في غير السبت أو كان لا يضرم ناراً في منزله ليلة السبت أو كان يأكل مع يهود أو أنه أكل لحم حيوان ذبحه يهود أو شرب شرابهم أو غسل ميتاً بالماء الحار أو جعل وجه المحتضر إلى الجدار أو سمّى ذريته بأسماء عبرية أو غير ذلك مما يأتيه اليهود عادة.

فإذا ما قبض على متهم أياً كان أودع السجون وحوكم وحكم عليه بأحكام هي غاية في القسوة الغريبة التي تأباها النفوس الرحيمة.

وإليك ما يقوله ليورنتي ذلك الحبر الكبير الذي ظل زمناً طويلاً أميناً لسر ديوان التفتيش الاسباني الأعلى:

لا أرى من سبب لبيان صنوف العذاب التي كان يعاقب بها الديوان المتهمين إذ قد وصفها كثير من المؤرخين وصفاً دقيقاً. ولكني أقول إنه ليس من بينهم من يتهم بالمغالاة والمبالغة فيما يروي. ولقد أتيت على كثير من القضايا قراءة وتلاوة فتولاني الرعب وملأني الاشمئزاز المصحوب بالرجفة

---

(١) نقل فورد في كتابه اليهودي الدولي صفحة ٣٣ عن زومبارت أنه في الثاني من شهر أغسطس سنة ١٤٩٢ طرد أكثر من ثلاثمائة ألف يهودي من إسبانيا دفعة واحدة.

والخوف. ولم أر من رجال التفتيش الذين لجأوا إلى أمثال تلك السبل إلا رجالاً قد انتهى جمودهم حتى غاية البربرية اهـ.

وكان في مقدمة العقوبات التي يحكم بها الديوان الحرق علناً في إحدى ساحات المدينة بعد أن يطاف بالمساكين أو بتمثال يرمز به لمن توفي منهم أو لمن فر قبل الحكم عليهم. ومن الملوك من كان يشهد تلك الحفلات فقد كان فيليب الثاني ملك إسبانيا متعصّباً تعصّباً أعمى. وكان لديوان التفتيش من النفوذ والسلطة في أيامه الشيء الكثير.

وفي يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ٩٦٨ هـ (العشرين من شهر اكتوبر سنة ١٥٥٩ م) أريد حرق اثنتي عشرة ضحية من ضحايا الديوان في الساحة الكبرى بمدينة الوليد وقد حضر الملك فيليب الثاني الحفلة الكبرى وهرع إليها ألوف من أقاصي البلاد من الاسبان للتمتع بمرأى التنفيذ الوحشي.

ولما انتظم الاحتفال الرهيب نهض الملك من فوق عرشه وأقسم بأن يحافظ على التقاليد الدينية الكاثوليكية وأن ينصر الديوان المقدس.

ومر على الملك المحكوم عليهم بالإعدام حرقاً وكان من بينهم سيد نبيل له بالبلاط صلة مصاهرة. فصاح في وجه الملك لما مر به قائلاً:

ـ كيف يسلم ملك مثلك سيداً مثلي لهؤلاء الكهنة!؟

فأجاب فيليب قائلاً:

ـ لو ارتكب ابني إثماً لأعددت بنفسي له المحارق لأُزهق روحه.

ولو فرضنا أن مذنباً جوزي بمثل ذلك العقاب الصارم فماذا جناه أهله وذووه كما كان يحدث أحياناً هناك، إذ كانت يد العقاب تمتد إلى الأسرة والأولاد والذرية الأطفال البرآء.

وقد صدر في سنة ١٥٠١ أمر ملكي ينص على حرمان أولاد وأحفاد كل

من حكم عليهم الديوان من جهة الابن من ولاية وظيفة ما، سواء كان ذلك في المجلس الخاص أو في القضاء أو بالمجالس البلدية، أو في أي عمل لمزاولة الجراحة أو الصيدلة أو تسجيل العقود.

وهذا اشتطاط في الأذى لا ندري إن كان له مثل في أي زمان أو في أي مكان آخر.

٣ ـ اضطهادات المسلمين ونفيهم وتشريدهم

على أن الاضطهاد لم يكن قاصراً على جماعة الملحدين واليهود فحسب، بل عمّ المسلمين بجزيرة ايبريا، ولم تفد المعاهدات ولم تغن الاتفاقات المعقودة بين المسلمين الأندلسيين وبين ملوك وأمراء الاسبان بعد أن سقطت غرناطة في يدهم في شهر يناير سنة ١٤٩٢ م (يوافق ربيع الأول سنة ٨٩٨ هـ)، وبعد أن تعاهد المسيحيون والمسلمون على أن تحفظ للمسلمين حريتهم الدينية، وأن يحافظوا على تقاليدهم، وأن يأمنوا على أرواحهم وأموالهم.

ولم تكن تلك المعاهدات إلا قصاصات من ورق أو خرقاً بالية. فقد تنمر للمسلمين الذين عاهدوهم ونكثوا بعهودهم بعد زمن يسير لا يكاد يزيد على ثمانية أعوام. لأن الأفكار الصليبية ما برحت هي المتغلّبة على عواطف الكنيسة الكاثوليكية التي أثارت تلك الحروب الشعواء من قبل ذلك بقرون.

ولقد خيل للمسلمين أنهم إذا دخلوا دين المسيح واعتنقوا الكثلكة فسوف ينجون من العذاب وسوف يتّقون الأذى.

وقد قيل: إن خمسين ألفاً من المسلمين قد تنصروا لأول مرة سنة ١٤٩٩ (يوافق سنة ٩٠٤ ـ ٩٠٥ هـ) لما أساء القساوسة إليهم. فحدثت فتنة كبيرة بغرناطة، وقبض فيها على كثير من أولئك البائسين.

ولكن التنصير لم يفدهم شيئاً. فقد كانوا موضع الريب وموطن الشكوك

دائماً. وكانت إسبانيا تخشى من مسلمي غرناطة الكثير عديدهم، لقربهم من إفريقية، ولوجوهم في وسط نصارى الاسبان.

أمّا تلك الشراذم الصغيرة المشتّتة في بقية أنحاء البلاد فما كان لهم من بأس يخشى. وقد عرف المسلمون هناك بالنشاط، وما هم عليه من الغنى والعلم وكانت لهم معرفة حسنة وبراعة فائقة في مزاولة الزراعة والصناعة. وكانوا متفوقين في مختلف العلوم والفنون، مع نشاط وعفة وجد، وكانوا أهل مثابرة ولهم إنسانية ورفق، ومع هذا كله فقد اشتط المسيحيون في معاملتهم، وإكراههم على الخروج عن دينهم، واعتناق دين آخر. وقد حاولت الكنيسة ذلك؛ وأخذ الرهبان والقساوسة في بث دعايتهم الملحّة وتعاليمهم بين الفقهاء وذوي النفوذ منهم، محاولين وعظهم وإقناعهم باعتناق مذهبهم. ولكن مسعاهم قد خاب ولم يفد الوعظ شيئاً. وقد أخذوا في أعمال الاضطهاد، وطاردوهم أي مطاردة وحاربوهم بكل وسائل العنف والعسف، وتولى كبر تلك المؤامرة على الإسلام في تلك البلاد الكردينال كمنيس مطران طليطلة والدوق ديجوديزا خليفة (تركويمادا) الراهب. كل ذلك يحدث باسم المسيح، حتى أثر عن ايزابيلا[1] قولها:

«إن حب المسيح والعذراء جعلني أميل لارتكاب الأعمال المؤدية للبؤس والشقاء وخراب البلاد والملك».

لا شك أن مسيح ايزابيلا الذي دعاها حبه إلى هذا الخراب ليس هو بالمسيح الذي جاء يدعو للسلام.

---

(١) من الغريب أن يكون لليهود نفوذ في بلاط إسبانيا في ذلك العهد. فقد كان لويس ده سنتاجل هو التاجر الشهير ببلنسية وجامع الضرائب الملكية، وقريبه جبريل سانخز أمين الخزانة الملكية وصديقه خوان كبيريرا الحاجب الملكي من اليهود المتظاهرين باعتناق الكثلكة.

لم يمل كمنيس من حمل الناس على التنصير، وحثّ المطارنة والقساوسة على التأثير على الناس بكل الوسائل.

مثال ذلك: ما فعله بأهل غرناطة وايعازه إلى مطرانها الدوق تالافيرا، وكان ذلك سنة ١٤٩٤ م (يوافق ٨٩٩ ـ ٩٠٠ هـ) فقد جمع علماء المدينة وفقهاءها وأخذ في دعوتهم إلى اعتناق الكثلكة وحباهم بالعطايا والهدايا. فتظاهر البعض باعتناقها خشية الاضطهاد أو لنيل الحظوة، وحاول البعض الآخر الاحتجاج على أعمال رجال الكنيسة قائلين: بأن هذه الأعمال تنافي ما أُخِذَ من عهد وما دُوِّنَ من ميثاق ومعاهدات عند فتح غرناطة. ولكن كمنيس لم يكن يبالي باحتجاجاتهم بل لوح لهم بالعنف والعسف، وزاد على ذلك أن جمع المصنّفات الإسلامية والمصاحف وأشعل فيها النيران. ويقدر بعض المؤرخين عدد ما أحرق من مؤلفات وغيرها بثمانين ألف مجلد. ويبالغ البعض فيرفع عددها إلى ألف ألف من المصنّفات في مختلف العلوم والآداب. وبذا سار في طريق تركويمادا الذي أحرق مؤلفات اليهود بمدينة شلمنقة سنة ١٤٩٠ م (٨٩٥ ـ ٨٩٦ هـ).

ويقال: بأن كمنيس أمر بحرق ثلاثمائة كتاب طبي كانت لجامعة القلعة، صنّفها المسلمون الذين كانوا أساتذة الطب في العالم حينئذ.

أثارت تلك الأعمال الاضطرابات بين مسلمي غرناطة في البشرات والبيازين وأخذوا يفكرون في الدفاع عن دينهم. وقام الملك فرديناند ليقمع تلك الاضطرابات وأوعز كمنيس إليه بأنه في حل من نقض عهده مع المسلمين لخروجهم عن طاعته وقيامهم بالثورة، فهم قد خانوا عهده، وقال له: ان ساعة تنصيرهم قد حانت وإلا فليودعوا إسبانيا الوداع الأخير. وتقدم إليه ديزا زعيم محكمة التفتيش بأنه يجب عليه أن يأمر بإنشاء محكمة في غرناطة. وأمر الملك بتأليف لجنة يعهد إليها في تحقيق أسباب الثورة وما جرته. وقبض على كثير من المسلمين بتهمة الدعوة إلى الثورة والانتقاض. وظن البعض من

مسلمي غرناطة أن اعتناق المسيحية ينجيهم من العذاب والسجون، ولكن خاب ظنهم بما ارتكبت معهم محاكم التفتيش ما ارتكبت.

وانظر إلى التحايل للتعمية على الحق. فإن الملكة والملك تظاهرا بمعارضة الفكرة لإنشاء محكمة تفتيش بغرناطة على أن يقدم كل منهم إلى محكمة التفتيش بقرطبة. ولكن القساوسة ما كانوا يقنعون بذلك، بل سعوا بكل ما أوتوا من قوة وبأس حتى جعلوا فرديناند الكاثوليكي على ريبة لا تنقطع من المسلمين ومن أعمالهم ومن خوف اتصالهم باخوانهم في الدين بإفريقية. وأصبح يعتقد الاعتقاد الجازم بأن سلام إسبانيا لا يكون إلا في إخراج المسلمين منها، أو في إجبارهم على الكثلكة.

٨ ـ آلات التعذيب بمحاكم التفتيش

كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سوداء. وقد ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدئت، يغلق عليها بباب من الحديد السميك وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض. وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم. وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب وسحابات ذات مسامير صادئة حادة لتمزيق الأجساد، وعضاضات حديدية لعض اللحم، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة ناتئة من الداخل تطوق بها جبهة المعذب ثم يأخذ المعذب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير في الرأس. ثم هناك كلاليب ذات رؤوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور، وآلات لسل اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تحمّى لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ووقع في يد أولئك الوحوش، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل يضعونها في رجل السجين ثم يأخذ الموكل بالتعذيب في تضييقها شيئاً فشيئاً، وسفافيد حديدية متباينة الأشكال لتحمّى في النار وتستعمل لكيّ المعذب، ثم مشنقة معلّقة في السقف لكي تشنق المعذب نصف شنق، فلا هو حي فيرجى ولا هو بالميت فيوارى. ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلّقة أيضاً في نواحي مختلفة في السقف ليربط فيها السجين وبينها، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه تمزيقاً في جهات عديدة، وتابوت وكان عبارة عن خزانة حديدية يقف فيها المعذب وفي بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة. فإذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان في عيني المعذب فتنفذان

من مؤخرة الجمجمة، وتدخل حربة في قلبه وأخرى في معدته وأخريان في بطنه. ثم كانت توجد آلات كثيرة لطي الإنسان وكسر عظام ظهره، ثم أخرى لإنزال نقط الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره نقطة نقطة حتى يجن المسكين بعد ساعات أو زمن قليل. ثم اسفنج تغمس في الماء المغلي لسلق المعذب، ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس، ثم صليب سمي (بصليب اندراوس) لصلب ضحايا التفتيش، ثم مائدة كبيرة وضعت في جانب البهو عليها ملاءات بيض وبجانبها برميل للماء. فإذا ما أُغمي على معذب من شدة الألم يضعونه عليها ويلفونه بملاءة تبل بالماء البارد لإنعاشه حتى إذا ما أفاق أعادوا تعذيبه.

وكان يوجد في وسط القاعة (الجحش الخشبي) فكان يربط السجين إليه لإزهاق روحه بواسطة التضييق على رئتيه، فكانوا يطوقون صدره بآلة حديدية ثم يأخذون في تضييقها بواسطة لوالب حتى تنقطع أنفاس المعذب المسكين.

وكانت أرض قاعة العذاب من خشب قديم قد هرأ ونخر السوس في أجزائه تتصاعد منه رائحة كريهة. أما المكان الذي كان يجلس فيه رجال التفتيش فكان مملوءاً بالصلبان وبالكتابة التي تشاهد عادة على القبور يقصد بذلك إلقاء الرعب في قلوب المعذبين، وكانت تشاهد دماء من عذبوا من قبل عليها وكثيراً ما تركت جثث في زوايا القاعة يقع عليها الذباب ويتصاعد منها كريه الروائح ليزيد كل ذلك في خوف المساكين الذين وقفوا أمام محاكم التفتيش. وقد أحاط بهم رهبان في ثياب سوداء وأغطية سوداء تغطي وجوههم ورؤوسهم لا تظهر منها إلا عيونهم وقد وقفوا وفي أيديهم كتب صلاة يرددون منها أنغام محزنة ومخيفة وبأصوات كلها الخشونة.

وكان بعض هؤلاء الرهبان يجلس إلى جوار رئيس المحكمة يمدّونه بالنصائح والإرشادات في مسائل التعذيب والحكم على المضطهدين. وكان من بين هؤلاء القوم راهب يحمل بيده صليباً رُسمت عليه صورة المسيح مصلوباً يأمر هذا الراهب المعذبين بإدامة النظر إليه.

وكان يحضر التعذيب طبيب، عمله أن يفحص كل معذب حتى إذا أُغمي عليه أمر بايقاف التعذيب وإنعاش المسكين بشراب ما ليتحمل العذاب فيعاد تعذيبه من جديد.

وكان يحظر على المعذب إبداء أي حركة أو صراخ أو أنين. وكان يكلف بأن لا يرفع صوته.

وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية كانوا يضعونها في فم المعذب المسكين عوضاً عن المناديل التي توضح لمنع الصياح. وقد جعلوا في تلك الآلة مربعاً على هيئة الصليب ليتنفس منه المعذب ولا يمكنه الصراخ منه. ومن المستحيل عليه أن لا يصرخ ولا يتألم وكيف يمكن ويتسنى أن يعذب مسكين مثل ذلك العذاب ولا يبدي حراكاً أو يصيح من الألم الذي يمزق جلده؟!

٩ ـ محاكمة مسلم من بقايا المسلمين في بلاد البرتغال وكيفية استجوابه أمام محكمة التفتيش

قبض على مسلم وسيق إلى المحاكمة. وكان ثبات ذلك الرجل أمام هيئة المحكمة مما دعا إلى زيادة حفيظتهم عليه والمبالغة في تعذيبه.

جيء بذلك الرجل أمام المحكمة، فقال رئيس المحكمة لجنود التفتيش:

ضعوا الحديد في أصابعه الآن وقدموه إلينا. ففعلوا.

ثم جيء بذلك المسكين أمام المحكمة وقد أعياه الألم فسقط مغشياً عليه.

فقال الرئيس:

ـ أوقفوه.

فأجاب أحد الحراس:

ـ إنه لا يقوى على الوقوف.

فقال رئيس المحكمة:

ـ إذاً فضعوه في التابوت فإنه يقف فيه.

فوضعوه في التابوت وهو صندوق مربع فيه مسامير من الداخل، فاضطر

المعذب أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف، ثم رفعوا الكمامة التي كانت على فمه ليتمكن من الإجابة على الأسئلة، وعندها تنفس المسكين الصعداء طويلاً. فأمر الرئيس بأن يسقوه قليلاً من الخمر. فلما شرب قليلاً منها تفتحت عيناه وحدث عنده شيء من الانتعاش، وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والاستجواب، فأبلغ ذلك هيئة المحكمة.

فوجه إليه الرئيس الأسئلة الآتية. وكان يجيب عليها كما ترى:

قال الرئيس:

ـ ما اسمك؟

ـ أنا مسلم مغربي.

ـ كلا بل اذكر اسمك المسيحي الجديد.

ـ صموئيل فرناندس.

ـ ان صموئيل هذا اسم يهودي.

ـ لقد كان المسيح يهودياً أيضاً.

ـ قل صدقاً: كم عمرك؟

ـ ثلاث وثلاثون سنة مثل عمر المسيح.

ـ إذن أنت مستعد للتضحية؟

ـ بإذن الله.

ـ أتقبل ذلك وأنت راض؟

ـ نعم.

ـ إذن قل: من هو إلهك؟

ـ هو إلهكم نفسه.

ـ وما اسمه؟

ـ الله في سماء ملكوته.

ـ بل قل معي: يسوع المسيح.

فأجاب الرجل وهو يرتعد:

ـ يسوع المسيح!

ـ يظهر عليك أنك تأثرت من ذكر هذا الاسم، أليس كذلك؟

أجل!

ـ وما نوع ذلك التأثير؟

ـ تأثير داخلي.

ـ وماذا قال لك هذا الصوت الداخلي؟

ـ لا أدري، فإني الآن لا أدري ماذا أقول.

ـ قل ما فكرت فيه بصوت مسموع.

ـ لا أقدر على الكلام لأني متألم جداً من الضغط على صدري. والكلام لا يكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة.

ـ سننظر ذلك جيداً جداً.

ونظر الكاتب إلى الرئيس مستفهماً.

فقال الرئيس: أظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام.

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب، وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء، فاحمر جلد وجهه، وكاد يخرج منه الدم وجعل يتلوى من الألم، فقال له كاهن:

ـ تعال يا صموئيل تقدم واعترف أمامي بكل خطاياك، وقل لي: بماذا

تفكر الآن؟ قل الحق قبلما يحل بك القصاص. تقدم يا بني. الحق بيدك يا محمد لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحية. فلماذا سميت نفسك صموئيل ولم تختر اسم قديس مسيحي كبطرس أو بولص؟ ثم نظر إلى الكاتب وقال اكتب:

ـ أين ولدت؟

ـ في طنجة.

ـ أإسباني أنت؟

ـ كنت إسبانياً.

ـ ولماذا تقول كنت؟

ـ أقول هذا لأني لست باسباني لكي أظل إسبانيا إلى الأبد.

ـ وأبوك؟

ـ ليس لي أب فإنه قد مات.

ـ وأمك؟

ـ ماتت أيضاً.

ـ وأين ماتا؟

ـ في سجون ديوان التفتيش.

ـ أحرقاً؟

ـ كلا بل تعذيباً حتى تهرأت أجسادهما، فماتا من شدة العذاب.

ـ وبماذا اتهما؟

ـ لقد كانا بريئين.

ـ هل لك إخوة؟

ـ أظن ذلك.

ـ كيف تظن! أين اخوتك وأين يقيمون!؟

ـ بل قل أولاً: أين ماتوا وأين قبورهم؟

ـ يظهر أنك تريد أن ينفد صبرنا معك. فسنبدأ بتعذيبك!

ـ يسوؤني هذا.

إذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من إخوتك ولا عن مكان إقامتهم إن الديوان المقدس لا يخفى عليه أن لك إخوة هم على قيد الحياة وهم يصلون في مساجد خفية. ألا تعلم أين هم؟

ـ لا أعلم.

ـ لمّا صدر الأمر بسجنهم هربوا، فلا تعلم إلى أين؟

ـ كلا.

ـ تذكر جيداً علك تعلم.

ـ كيف يمكنني أن أتذكر وأن مضطرب الفكر ضائع العقل؟!

ـ يجب أن تساعدنا على معرفة مقرّهم حتى تخلص نفوسهم.

ـ على غرار ما ستفعلون معي الآن.

ـ أنت تسكن مع امرأة، فمن تكون هذه؟

ـ زوجي.

ـ كيف يمكنك ادعاء هذا؟

ـ هي تريد أن يكون الأمر كذلك.

ـ علمنا أنها مسيحية وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي وتنبذ العفاف، فيجب عليك أن تسلم زوجك للديوان المقدس.

ـ هل هذا هو العفاف والدين عندكم؟

ـ نحن لا نجادلك بل نأمرك.

ـ إذا كنتم تأمرونني فأولى بكم أن تقتلوني. وهذا كل ما يمكن أن تفعلوه وعندئذ سوف تصلي زوجي من أجلي.

ـ ويلك يا شقي ألا تزال مصرّاً على إنكارك؟! أصلح هفواتك وخطأك يا هذا وإلا فإنك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً ـ والآن فلنتم أعمالنا.

قل لنا: أين اخوتك وأين زوجك؟

ـ هم في مكان أمين.

ـ ألا تريد أن تعترف بأكثر من هذا؟

ـ إني أعترف إلى الله خالقي فحسب. أنتم تعذبونني والله يعلم أني بريء.

ـ سوف تساق إلى التعذيب الآن فالأولى لك الإقرار.

ـ لا يعنيني العذاب فإن جسمي مخدر لا يشعر.

ـ إذا لم تجب على ما سألناك الآن فسوف تسقى الماء رغم أنفك، يدفع إليك من حلقك حتى يقضي عليك.

ـ لقد احترقت رجلاي أولاً بناركم فلم أمت حتى الآن.

فقال أحد القسس، وهو يتصنع الرقة والعطف عليه بصوت متكلف:

ـ اعلم يا بني أننا لا نرمي من وراء تعذيبك إلا إلى الإقرار عن بقية أهلك الذين تحبهم وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ونصعد بكم إلى السماء.

فأجاب الرجل:

ـ إذا صعدنا نحن إلى السماء فمن يهوي بكم أنتم إلى الجحيم وبئس القرار؟

وعندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذبين المرتدين الثياب السود الواقفين أمام آلات التعذيب، فهجموا عليه وأخذ البعض منهم يضع الحبال في يديه وصدره معاً ويلفها لفاً، وآخرون ربطوا رجليه بحبل دقيق ثم وضعوه على مائدة خاصة وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً. وتقدم أحد هؤلاء المعذبين وهو يحمل جرة ملأى بالماء. وتقدم آخر وفي يده قمع، فقال الكاهن الموكل بعظة الخاطئين والصلاة لأجلهم:

ـ والآن يا صموئيل لماذا تضطرنا يا بني إلى تعذيبك وإحداث هذه الآلام لك ما دمت قادراً على الخلاص من هذا كله إذا ما قلت لنا أين اخوتك وأين زوجك!؟

فأجاب الرجل:

ـ لا يمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم لأني قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم وأسلمهم لديوان التفتيش.

فقال الكاهن:

ـ ولكنا لا نعتقد أنهم يرضون لك هذا الحال وهذا العذاب الأليم.. إن هذا السكوت لا يعد أمانة الآن بل يعد جنوناً... قل قبل أن يبدأ الرجال بتعذيبك.

ـ انني أشكر لكم إذا ما قتلتموني مرة واحدة.

ـ دع عنك هذا العناد يا رجل، واعلم جيداً انك سوف تموت دون أن يعلموا بأنك مت فداء لهم. والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً وإن آجلاً فتكون قد متّ أنت من غير ما فائدة. ومع هذا فإن زوجك هذه سوف تنساك لا محالة وتتزوج سواك. وربما تكون قد خانتك الآن.

فصاح الرجل قائلاً:

ـ صه أيها النذل الحقير، واعلم جيداً ان عذابكم لجسدي لا يعنيني قدر تعذيبكم بكلامكم هذا الذي تلفظه ألسنتكم القذرة السامة!

وبكى الرجل وبدأوا بتعذيبه فكان صراخه يملأ القاعة، ولكن ليس من منقذ، بيد أن القسس كانوا وقوفاً يصلون وبيدهم كتبهم يرتلون منها الأناشيد المسيحية.

وبينا هم يعذبون المسكين على هذه الصورة سيقت سيدة أمام المحكمة وكانت رابطة الجأش ذات شجاعة مدهشة، ونظر إليها رئيس المحكمة بنظرات حادة كلها الحقد والغضب والانتقام، وسألها قائلاً:

ـ ما اسمك يا هذه؟

ـ سوزانا فرناندس.

وسمع زوجها المعذب ذلك فأنّ أنيناً طويلاً محزناً، فقد عرف انهم قبضوا على زوجه المسكينة، وانها وقعت بين براثن أولئك الوحوش العتاة. أما هي فلم تتمكن من معرفة من يعذب لما استولى على القاعة من ظلام. ولكنها عندما سمعت الأنين التفتت لترى من يئن وعندها أخذ رئيس المحكمة في استجوابها وعيناه تتقدان شرراً، ومنهما ينبعث الشر لالتفاتها واستمر يسألها قائلاً:

ـ بنت من أنت؟

ـ لا أعلم.

ألا تعلمين من هما أبواك؟!

ـ كلا، إنما رأيت ذات مرة رجلاً ماراً بحي تريانا فقالوا لي ان هذا أبي.

ـ أهذا كل شيء؟!

ـ نعم.

ـ وما اسم ذلك الرجل؟

فأجابت إجابة ساذجة قائلة:

ـ قيل لي إن له اسمين: الأول الراهب، والثاني الرجل المهيج.

ـ وأمك من تكون؟

ـ هي أمي.

ـ وأين هي؟

ـ ماتت.

ـ وأين ماتت؟ هل سقطت في الوادي الكبير؟

ـ كلا بل قتلت قتل العمد.

ـ وكيف كان هذا؟

ـ انها ماتت جوعاً في سجون ديوان التفتيش.

ـ وأين كانت تسكن قبل أن تسجن؟

ـ مع رجل من بقايا العرب، كان يمر ببابنا كل يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد، فسكن وسأنضم أنا لهما أيضاً.

ـ وهل مات ذلك الرجل؟

ـ نعم قد مات في سجون ديوان التفتيش.

ـ أكان مسيحياً؟

ـ لا أدري. ومع هذا فلم تسألونني عن المسيحية كثيراً؟ وما هو دخل الديانة المسيحية في ديوان التفتيش؟!!

وما كادت السيدة تتم كلامها حتى بدأ رجال العذاب في تعذيبها تعذيباً مخيفاً تقشعر من ذكره الأبدان.

١٠ ـ طرق التعذيب في محاكم التفتيش

أ ـ من طرق التعذيب عندهم ملء البطن بالماء، وكانوا يضعون المعذب المسكين على قطعة من الخشب تقريباً، وقد ارتفع الجزء الذي يربط إليه رأسه عن الجزء الذي تربط إليه أقدامه وساقاه بواسطة حبال متينة كما كانوا يربطون صدره بمثل تلك الحبال. ويأتي رجل من رجالهم بقمع يضعه في فم المعذب وأمامه آخر يحمل جرة ملأى بالماء، ويأخذ في صب الماء داخل القمع شيئاً شيئاً والطبيب إلى جوارهما يراقب التعذيب ليرى إلى أي حد يمكن للمسكين أن يحتمل ذلك النوع من العذاب الذي يؤدي إلى قتله اختناقاً.

وكان يقف أحد القساوسة إلى جوار ذلك المنظر المؤلم وهو يسأله أيعترف أم لا؟ فإذا ما أبى أمر حامل الجرة أن يزيد في سكب الماء حتى ينتفخ بطن المسكين وتجحظ عيناه ويموت اختناقاً بالماء.

ب ـ وكثيراً ما كانوا يضيفون إلى ذلك نخس المعذب بالدبابيس في أعصابه وشرايينه ساعة صب الماء.

جـ ـ ونوع آخر من التعذيب كان بواسطة حرق القدمين وإليك البيان:

يربط المعذب إلى كرسي طويل (دكة) ربطاً محكماً بواسطة الحبال المتينة حتى يصبح كأنه جزء من الخشب المربوط إليه لا تمكنه الحركة وكانوا يتركون القدمين خارج الكرسي فوق موقد به نار تلتهب وتضطرم اضطراماً. والموقد له لولب يرفع النار ويخفضها كلما أريد ذلك. فكان إذا بدىء في التعذيب ابتدأوا في رفع الموقد وهم يستجوبونه، فإذا ما أصر على الإنكار في

عرفهم تركوا قدميه تحترقان فإذا تمت العملية فكوا وثاقه وأمروا المسكين بالوقوف والمشي، واستعملت السياط في قفاه وجسمه حتى يصل المسكين لسجنه ويقضي نحبه فيه.

د ـ ونوع آخر من التعذيب بواسطة تفتيت الأعضاء وتكسيرها وبيان ذلك هو:

يعرى الشخص كله وتستر عورته بخرقة ويوضع حبل متين جداً في وسطه تحت الابطين، ويعلق الحبل إلى بكرة في السقف. ثم يجذب الحبل فيرتفع الجسم ثم يترك فيهبط بسرعة بمقدار قامة الشخص أو يكون بين نهاية الحبل والأرض شبر أو نصف متر على الأكثر.

وتكرر العملية المذكورة عدة مرات. وكانوا أحياناً يجعلون القدمين لا تصلان إلى الأرض وعلى العموم يكون طول الحبل من السقف حتى منتهى سقوط المسكين ستة أمتار أو أكثر.

هـ ـ التعذيب بواسطة تمزيق الأعضاء:

يعلق الرجل أو المرأة إلى السقف وتربط كل يد وكل رجل إلى حبل مثبت في بكر في الزوايا الأربع للغرفة، وتوضع أثقال في أطراف تلك الحبال كل ثقل منها مائة كيلو جرام، فتجذب تلك الأثقال أطرافه ويبقى المسكين كأنما هو نائم وهو معلّق في الفضاء وتتمزق أطرافه على هذه الكيفية إن لم يعترف لهم بكل شيء وهم يسألونه أثناء إجراء العملية، وكلما أصر على السكوت وعدم الإجابة زادوا في وضع أثقال جديدة ويبقى كذلك حتى يموت.

و ـ التعذيب بواسطة الدفن على قيد الحياة:

وكان يجري ذلك أمام الناس، فكان رجال التفتيش يتخيرون جداراً في

طريق كبير أو ميدان عام ويحفرون في ذلك الجدار قبراً يوضع فيه المسكين أو المسكينة، ويعاد البناء كما كان.

وكانوا يتركون فتحة صغيرة لكي يراه الناس منها وهو يقترب من الموت أو الموت يقترب منه رويداً رويداً.

وويل لمن وقف على قبر كهذا وتأفف أو تحسر على الدفين أو أظهر امتعاضاً من أعمال المحكمة القاسية.

ز ـ وعذاب اختص به النساء العنيدات اللواتي كن يشتمن رجال المحكمة عند المحاكمة.

وذلك بتعرية المرأة إلا ما ستر عورتها وكانوا يأخذونها إلى مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها وهي على هذه الحالة السيئة ولا يمكنها الحراك. وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية سيّما إذا ما أرخى الليل سدوله. وتترك المسكينة على هذا الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً. وكان رجال التفتيش يعتقدون أن الروح الشريرة هي التي تتكلم في المرأة. وهم يعتقدون أن القبور مسكن لذوي الجنة والشياطين.

١١ ـ عدد الضحايا

ويقدر عدد ضحايا ديوان التفتيش في بلاد البرتغال، الصادر بتعذيبهم وقتلهم أحكام من أربع محاكم (وهي: الاشبونة وايفورا وكويتبرا وكرا) بنيف وخمسين ألفاً وأحد عشر شخصاً، منهم ٢٨ ألف رجل والباقي من النساء. ويدخل في عداد ذلك من أحرقوا وهم أحياء في الميادين العامة أو من ماتوا في سجون التفتيش.

هذا عدد أخذ من الدفاتر الرسمية لديوان التفتيش. والله تعالى وحده أعلم بعدتهم الحقيقية لأنه لا يعلم بصحة عددهم إلا قليل.

وقد ظل ديوان التفتيش يعمل في بلاد البرتغال نيفاً وإحدى وثمانين ومائتي سنة بلا انقطاع.

وقد ألغي يوم ٣١ مارس سنة ١٨٢١ م (الموافق ليوم ٨ رجب سنة ١٢٣٧ هـ).

والفضل في إلغائه راجع إلى المركيز دوبوميال وفرنشيسكو سيمون مارجوكي، وكانا عضوين في مجلس نواب تلك البلاد. وقد اقترح الاثنان أمر الإلغاء. وتمّ ذلك بعد أن شهدت تلك البلاد من فظائعه ما تقشعر لهوله الأبدان.

ضحايا محاكم التفتيش
من العلماء والمفكرين

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ﴿أم هل تستوي الظلمات والنور﴾

قرآن كريم

يموت من الناس المئات والألوف فلا يكاد يذكرهم إلا ذوو قرابتهم أو من كانوا في جيرتهم ومن عرفهم، ثم يتناساهم هؤلاء أيضاً بعد زمن وجيز.

أما إذا مات عظيم من العظماء، أو كبير من الكبراء، أو عالم من العلماء، أو مفكر باحث غزير المادة قويّ الجنان، فعندها يشعر الناس برنة الأسى والأسف تتردّد في الأرجاء دانيها وقاصيها، وتهتز أوتار القلوب حزناً، حتى قلوب من لا قرابة لهم به، أو من لا لحمة نسب لهم به أصلاً، إلا صلة العلم والتفكير ونشدان المثل الأعلى للحياة الروحية. ولا يزال الناس يذكرون ذلك العظيم ويرددون اسمه. والعظيم ـ في رأينا ـ من أفاد الناس بتجارب علمه أو بما بذله من جهود صادقة لخير الإنسانية ومنفعة البشر، وضحى في سبيل ذلك بقواه وما أوتي من بأس وما أنعم الله عليه به من نفيس في هذه الحياة.

وكذلك قد رفع الله الناس درجات بعضها فوق بعض في الحياة الدنيا، وجعل لهم منازل من الذكر الجميل والأثر الطيب الذي يمتد بعدهم إلى القرون وآلاف السنين بعد أن يستريحوا الراحة الكبرى.

والحق أن موت عالم كبير خسارة عظيمة دونها موت الألوف ممن عاشوا وماتوا ولم يكونوا إلا كأدوات متحركة إذا قاموا، أو خشب مسندة ونصب نخرة إذا قعدوا، وذلك راجع إلى أن تكوين عالم يحتاج إلى مجهود كبير حتى يصل إلى درجة من العلم، دع عنك ما يجب أن يكون له من استعداد للنبوغ أو ميل إلى التفكير والبحث.

وأيسر لك أن تجد الألوف من الأكَرة ومئات الألوف من العمال وصغار الكتبة في الدواوين والمكاتب، من أن تعثر على عالم أفاد الإنسانية كأديسون مثلاً. أو فيلسوف ككانت. ومن السهل أن تلد الأمهات أولاداً لا يصلحون إلا للأعمال العادية في الحياة من أن تلد الأمة بأسرها واحداً كمن ذكرنا، يكون له مثل ذلك الجلد والصبر على التعليم والعمل والتفكير والاختراع، وعلى إخراج ما بعقله من كنوز، وما بذهنه من عصير، يكون فيه الشفاء للناس والنفع للبشر.

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لأوطانهم التي ينسبون إليها خاصة. فهم حق مشاع للإنسانية تنتفع بمجهوداتهم، وما أوتوا من نبوغ وما رزقوا من جلد وصبر للوصول إلى ما يمكن الوصول إليه بعد البحث والتفكير.

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لبني ملتهم ودينهم الذي ينتمون إليه أو ينسبون له فحسب، فأيما عالم ظهر في بلد ما، هرع إليه الطلاب من أقاصي البلدان ومن شتى الأديان للانتفاع بمواهبه وورود ما يفيض به على الناس في درسه، وإذا ما احتفل به لمناسبة ما، اشترك في الاحتفال به صنوف شتى من الناس لا يفرقهم دين أو مذهب لتكريم ذلك العالم. وإذا ما حل به رزء أو قضى أيامه في هذه الحياة، حزن الناس لمصابه وجزع الخلق من مصابهم فيه. ولا نرانا في حاجة إلى دليل على ذلك، فالأدلة عديدة حتى إنا نرى من فضول القول الاتيان بشيء منها.

لهذا يرى الناس أنه من العار على رجال التفتيش أن فعلوا ما فعلوا

بالعلماء والمفكرين، سواء كانوا من مسلمي جزيرة ايبريا أو من غيرهم ممن اعتنقوا ديانات أخرى، إذ كان رجال التفتيش يضطهدون العلماء، ويذيقونهم مر العذاب ويحرقون كتبهم، ويكسرون أدواتهم ويحطمون بقاياهم، ويضيقون على المفكرين ويزجون بهم السجون، ويأمرون بحرقهم أحياء، لا لسبب جنوه إلا أنهم بحثوا في الفلك والحساب والطب، أو أنهم درسوا الفلسفة والآداب، أو قالوا برأي لا ينطبق وما رسخ في عقول رجال التفتيش من الجهل والظلمات.

والغريب أن أولئك القساوسة الجهال المتعصبين عن ضلال وقلة معرفة ودراية، فعلوا ما فعلوا بالمسلمين واليهود والمسيحيين أنفسهم في أوروبا. ولما ذهبوا إلى أمريكا حرقوا نيفاً وأربعة آلاف كتاب دوّنت فيها علوم (المايا) وهم قوم من الهنود الحمر كانت لهم حضارة، ولا زالت آثارهم تحدث من يراها بما كان لهم من قدم ثابتة في العلم والعرفان، مئات بل ألوف السنين في أمريكا الوسطى. وبحرق أولئك القساوسة لتلك الكتب والمجلدات قضوا على حضارة المايا في أمريكا الوسطى كما قضوا على حضارة المسلمين في غرب أوروبا، ولم يبقوا منها إلا آثاراً تنعي من بناها، ومخلفات تشهد بنبوغ أصحابها.

كان (جوردانو برونو) عالماً فلكياً ظهر أثناء القرن السادس عشر الميلادي، وقد مهد السبيل لمن جاء بعده من العلماء وأرباب الأرصاد وعشاق الفلك، قال (جوردانو) بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس، وذكر أشياء عن الكواكب السيارة. وكانت له آراء في عدم التناهي وامتداد اللانهاية في عالم الأفلاك.

وكانت هذه الأقوال والآراء تخالف آراء الكنيسة وتناقض أقوال رجال الكهنوت وقساوسة التفتيش، ولهذا قبض عليه رجال الديوان الذي كان في مدينة البندقية (فينسيا)، وأمروا بسجنه سنتين، ثم سلم إلى ديوان التفتيش الروماني، فحكم عليه بالحرق حياً في الساحة العامة، ونفذ ذلك الحكم

الوحشي سنة ١٥٩٨ م (١٠٠٦ ـ ١٠٠٧ هـ) أيام البابا اكليمنصوس الثامن.

وفي ذلك القرن المذكور ظهر العلامة (دولت) وكان أيام (جوردانو)، واشتغل بالفلك والطباعة وقد تعلّم بباريس وپادوا وفي طلوشة (تولوز بفرنسا).

وقبض على دولت وزج به في السجن وعمره أربع وعشرون سنة، وذلك لأنه طبع بضعة أوراق في المطبعة ومهرها باسمه ذكر بها بعض آراء فلسفية، وقال بوجوب البحث في أسرار الكون والخليقة، ثم أطلق سراحه بعد أن تشفع له أسقف ايكس، ولكن الديوان تعقبه وتتبعه، ثم صدر أمر مجلس النواب بنفيه سنة ١٥٣٣ م (توافق سنة ٩٤٠ ـ ٩٤١ هـ)، فسافر إلى ليون وأذن له سنة ١٥٣٥ م (٩٤٢ ـ ٩٤٣ هـ) بطبع كتاب أسماه (بحث في اللغة اللاطينية). وأحاط به جماعة لقتله فدافع عن نفسه وقد أحاطوا به وهم شاهرون خناجرهم وقتل واحداً منهم، وقبض عليه وزج به في السجن المظلم، وكانت ملكة نَبّرة (نافارا) معجبة بعلمه وتفكيره، وكانت تعلم أنه مظلوم، فسعت حتى استصدرت أمراً من الملك بالإفراج عنه سنة ١٥٣٧ م (٩٤٤ ـ ٩٤٥ هـ) فعاد (دولت) إلى طبع الكتب الفلسفية والعقلية، فهال ذلك رجال الكنيسة، فقبض عليه سنة ١٥٤٢ م بتهمة الزندقة والإلحاد وزج به في سجن ديوان التفتيش خمسة عشر شهراً في باريس، وما زال يقبض عليه ويطلق سراحه حتى قبض عليه أخيراً وجيء به إلى مدرسة اللاهوت بباريس، واجتمع القساوسة وحكموا عليه بالإلحاد والكفر لأنه قال بوجوب اتباع فلسفة أفلاطون، واتهم بتهمة إحداث ثورة في البلاد وخلع الملك، ولم يغن عنه دفاعه فحكم عليه بالموت، فشنق في السجن، وجيء بجثته وأحرقت في أحد الميادين هناك، وكتبه معه، وصودرت ممتلكاته وكتبه، ولاقت زوجه وولده الصغير ما لاقيا من بؤس وشقاء.

أما (فيانني) فكان مفكراً وفيلسوفاً له آراء في الإلهيات والمادة، وله أقوال ونظريات فلكية، وكان من جماعة الماديين، وقد قبض عليه وحكم عليه في باريس بقطع اللسان، ثم بالاحراق وهو على قيد الحياة، وقد تمّ ذلك سنة ١٦١٩ م (سنة ١٠٢٩هـ).

وإليك نهاية عالم آخر: (دميان دي كيز) المولود في المخُيِّر بالبرتغال سنة ١٥٠١ م، وكان يشبه لوثر في روحه وخروجه على التقاليد القديمة، وقد عيّن في عدة وظائف بالحكومة البرتغالية حتى عين سفيراً لها في هولاندا سنة ١٥٢٩ م (سنة ٩٣٦ ـ ٩٣٧ هـ)، وكانت أمه هولندية، ثم استدعاه ملك البرتغال واتخذه كاتبه الخاص.

وحدثت بينه وبين أحد الكرادلة مناقشة، فلاحظ هذا الأخير عليه أنه لا يعتقد كثيراً في عصمة الكنيسة الكاثوليكية، فشكا أمره إلى الملك ففصله من خدمته وعيّن آخر بدلاً منه. ولم يلبث أن اتهم بالالحاد والزندقة فزجّ به في سجن التفتيش، وقيل ان القمل غطى جسده وأكله حياً، ومات في سنة ١٥٧٢ م (٩٧٩ ـ ٩٨٠ هـ)، وصادر الديوان كل ماله وضمه إليه.

وجاهرت سيدة تدعى (هابيتيا) ـ وكانت على درجة من العلم والتهذيب كبيرة ـ بأفكارها الحرة، فقبض عليها وهي في الكنيسة، وانهالوا عليها ضرباً حتى فاضت روحها وأمر القساوسة الجلاد بقطع جسدها أربعة أجزاء ففعل ذلك بفأس! وقيل إنهم أطعموا القطع لكلاب المدينة.

أما (جاليليو) فله ذكر كبير عند أرباب الفلك والمشتغلين به، فقد كان عالماً كبيراً وفلكياً له أبحاثه وآراؤه في الفلك والسيارات وحركاتها ورصدها، وله تواليف في علم الفلك والهندسة.

استدعى رجال التفتيش (جاليليو) سنة ١٦٠٥ م (١٠١٤ ـ ١٠١٥ هـ) وعدّوا مؤلفاته الخاصة بدوران الأرض وما شاكل ذلك من أعظم الأعمال الالحادية التي ليس بعدها من كفر، وأن آراء لوثر نفسه لا تعدل ما يراه هو، وحكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن مع التعذيب، فعلق الحديد بعنقه وتولى الجلادون تعذيبه، ولما مثل أمام هيئة المحكمة جيء به عرياناً حافي القدمين ولكنه لم يرجع عن رأيه فربط إلى الجحش الخشبي وجلد وألبس في رجليه حذاء حديدياً محمياً له مسامير، وعذبوه حتى غلبه الألم فعدل عن رأيه

ليرحموه فكفوا عنه العذاب، ولكنه عاد وقال به مرة أخرى، فأعادوا تعذيبه وسجنه ولم يشفقوا على شيخوخته، وألزموه أن يعترف عن مخبأ كتبه لحرقها وفرضوا عليه قراءة سبعة مزامير كل يوم كفارة عن خطاياه!

ورأى البابا اكليمنصوس أن يطلق سراحه لئلا يقضي وهو في سجونهم، فيتخذ البروتستانت في المانيا وانكلترا موته ذريعة للتشهير بالكنيسة نظراً لبعد صيت جاليليو، وقد أجبر على أن يتعهد بعدم طبع كتبه الالحادية فخرج وهو يخشى أن يعود إلى السجن.

وطورد الكونت (جيوفاني بيكود للأمير اندولا) وكان أميراً ايطالياً، وكان له ولع بدراسة العلوم والفلسفة، وكان مفكراً كبيراً، وقد ذاع ذكره وهو فتى صغير، لبراعته في العلوم براعة خارقة للعادة. وخشي بابا ذلك الحين منه ومن تفكيره ومن نظرياته وآرائه، وخشي أن يؤدي ذلك إلى هدم الكنيسة وإسقاط هيبتها من نفوس الذين يتبعونها ويصدقون كل ما تقول من غير تفكير أو بحث. وألفت لجنة لبحث آرائه في الدين والعلوم والفلسفة وما أذاعه من آثار تفكيره. فرأى القساوسة أعضاء اللجنة أن آراءه كبيرة الخطر على الكنيسة وأن بها كفراً ومروقاً عن آراء الكنيسة. كان كل ذلك وهو الشاب الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، ورد على قرار اللجنة بكتاب سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) يبرر فيه ما قاله وما فكر فيه. ورأى أن الخير في أن يذهب إلى إسبانيا، ونما الخبر إلى البابا فخشي أن يذيع الشاب آراءه ونظرياته في تلك البلاد، فكتب البابا لملكي إسبانيا (فرديناند وايزابلا) بذلك وأن الشاب كافر خطر، وأمر الملكين بالقبض عليه ومحاكمته أمام محاكم التفتيش. فاستعد الملك وسنحت فرصة للديوان لشحذ خناجره وآلات تعذيبه تأهباً للتشفي من المفكر الفيلسوف، فلما علم هو بذلك عدل عن السفر إلى إسبانيا واتصل بآل مديتشي على غير معرفة، وكانوا حماة العلم والأدب في ايطاليا أيامئذ، فحموه، وعين أستاذاً للفلسفة هناك ونشر كتباً ورسائل، وتوفي صغيراً سنة ١٤٩٤ م التي توافق سنة ٩٠٠ ـ ٩٠١ هـ.

وليس من قصدنا أن نأتي على ذكر كل من وقع فريسة لرجال التفتيش من العلماء والمفكرين. ولكنا قصدنا إلى ذكر أمثلة قليلة لما كانت تفعله محاكم التفتيش من مآثم لا تعد ولا تحصى. كانت دليلاً على أن وحشية رجالها لا تقف عند حد، ولا تختص بطائفة.

ومما يذكر في هذا الصدد أنهم كانوا إذا ما وقف أحد العلماء أو أحد المفكرين الأحرار أمام محكمة التفتيش، فإنهم كانوا يوجبون عليه أن يخبر المحكمة عن آله وأصدقائه وعن كل إنسان يظن أنه على شاكلته في الرأي وعن أماكن وجودهم وعن الكتب التي يطالعونها وعن مصادرها وعمن باعها لهم، وعن أماكن اجتماعهم وعن محافلهم.

وبعد المحاكمة يؤخذ المسكين فتنفذ فيه العقوبة التي كان رجال التفتيش يتفننون في كيفيتها أيّما تفنن من ملء البطن بالماء ونخس المعذب بالدبابيس وحرق القدمين وتفتيت الأعضاء وتكسيرها وتمزيق الأعضاء والدفن على قيد الحياة، وما عرف بجزاء العنيدات، وحرق الجسم كله في ميدان فسيح أمام الجماهير وغير ذلك مما قد نعود إلى البسط في ذكره في فرصة أخرى.

وقد ظل ذلك الديوان قائماً في إسبانيا وبلاد البرتغال وغيرها زهاء أربعمائة سنة دون انقطاع وقد خضدت شوكته في أوائل القرن التاسع عشر عقب الثورة الفرنسية والأمريكية.

ولا نحب أن ننسى ذكر ما أحرقه أولئك الوحوش المتبربرون من مئات المجلدات وآلاف الكتب التي أنتجتها عقول العلماء والمفكرين في جزيرة ايبريا وغيرها وما رموا به إلى البحر والنهر، فذهبت تلك المؤلفات الثمينة طعمة للنيران وللمياه، ولم ينتفعوا هم بها ولم يتركوها لغيرهم ينتفع بها. ولو أن تلك المؤلفات أو بعضها وصل إلينا لوصلنا علم وفضل غزير، ولكنها هي العقول الطائشة والأدمغة الفارغة من التقدير الصحيح للعلم والأدب تقضي في سويعات على ما قضى فيه العلماء السنين ومئات السنين في التأليف والتحبير لفائدة الإنسانية وخير البشر.

١٢ ـ ديوان التفتيش بإسبانيا

يقال إن القديس (دومينكو) هو أول من كان رئيساً للجلسة الأولى لهذا الديوان بإسبانيا، ولكن الذي كان له ذكر كبير هو (توركويمادا) الذي عين رئيساً عاماً لديوان التفتيش بأمر من البابا بنتو الرابع سنة (٨٤٧ هـ ـ ١٤٤٣ م) وكان مركز سلطته في مقاطعتي الأراجون وكستيجا، ويقال إن (توركويمادا) هذا من أسرة عرفت بالقسوة والشدة، وكثيراً ما استخدم أجداده كجلادين في بلاط الملوك الأولين ولكن (توماز دي توركويمادا) بزّ أجداده فظاعة وشدة حتى ليقال إنه هو الذي تفنن في أنواع التعذيب لذلك الديوان وعرف فيه الغدر والخيانة وأنه كان يذيق كل من يشتبه في أمانتهم وإخلاصهم له الموت الزؤام.

وسبب موته أنه أراد الاعتداء على عفاف فتاة جميلة ثم كان يأمر بعدئذ بموتها كما كانت تلك عادته، فما كان منها إلا أنها دست له السم في خمر بيدها. والغريب أن البابا بنتو الرابع أدخله في حظيرة القديسين وأصحاب المجد في الكنيسة.

وقد ظل ذلك الشرير المقدس سبع عشرة سنة في إسبانيا حرق في أثنائها سبعة عشر ألف شخص وهم على قيد الحياة.

ولما مات ذلك العاتي أصدر البابا أمره بأن تكون محكمة التفتيش مختلطة من جميع طبقات الرهبان وأن تصدر الأحكام باسم البابا. ومن ذلك الوقت أطلق عليها اسم (المحكمة المقدسة) وكان ذلك سنة (٨٨٦ هـ ـ ١٤٨١ م).

وقد صدر مرسوم ملكي من ملكي إسبانيا حينئذ فرديناند وايزابيلا

بتأسيس ذلك الديوان والمحكمة المقدسة وأن تزاول أعمالها البربرية في كل الجهات التابعة لهذين الملكين. وكان الرهبان والراهبات في ذلك العهد يدعون (بآباء الإيمان) وكان المرسوم يعطي رجال الكنيسة الحق في إدارة شؤون ذلك الديوان وتعقب من يشتبه في أمرهم من اليهود والمسلمين وكل من لم يكن يعتقد أنه كاثوليكي شديد التعصب للكثلكة وكانوا يتجسسون على الناس ويلقون القبض عليهم، وإذا ما عرفوا بوجود من يقاومهم أو كان زنديقاً كافراً في عرفهم في جهة أخرى غير ناحيتهم فإنهم كانوا يرسلون لمطران تلك المقاطعة بأوامر ليلقي القبض على ذلك الشخص وعلى أسرته ويرسل بهم إلى ديوان التفتيش.

وكان رؤساء ذلك الديوان وأعضاؤه يركبون عربات فخمة تجرها أربعة من جياد الخيل، وتحيط بعرباتهم كواكب من فرسان شهروا سيوفهم وهم في أفخر حلة كأنما هم حرس لقيصر عظيم أو سلطان عظيم الشأن.

ويقول بعض المؤرخين إن أولئك الرهبان كانوا يسكنون قسماً خاصاً من ذلك البناء الضخم المخصص ليكون مقرّ ديوان التفتيش ومقر سجونه، وكان كل راهب دومينيكي يسكن في الجزء المخصص له، وقد جعل فيه كل أسباب الترف والنعيم المقيم بينما تراه يأمر بتعذيب المئات والألوف في أسفل ذلك البناء والصرح المشيّد. والويل والثبور لمن كان يغضب عليه راهب كهذا كائناً من كان.

فقد كان للديوان جنده الخاص به ولهم أعلامهم وكان ذلك الحرس أو الجيش يدعى بجيش (الحرب المقدسة) هذا عدا الجيش السري وهم عيونه على الشعب.

وعلى العموم لم يكن ذلك الجيش يجمع إلا على سبيل التطوع، والسعيد من قبل في ذلك الجيش وكان جل من قبل من الأمراء والأشراف والله أعلم بسبب انضمامهم في ذلك وقد كان كل منهم زير نساء فاسقاً عَيهوراً

يتطلّع للنساء الجميلات وللبنات الحسان يزجّ بآبائهن وأزواجهنّ في السجون ليخلو له الجو فإذا ما عفت الواحدة بعدئذ وامتنعت عن إجابة مطالبه الفاسقة زجّت هي أيضاً في أعماق السجون وأجبرت قسراً على الفسق واعتدي على عفافها داخل تلك السجون الرهيبة ولم يكن أحد يجسر أن يشفع لبائس ذي حظ عاثر نزل ضيفاً على أولئك الشياطين فإنه كان يلحق بمن تشفع له لسوء الظن به، مهما كان مقامه ومهما كانت منزلته.

وكان كل فرد في إسبانيا ملزماً بالإجابة عن كل سؤال خاص بحياته الخاصة مهما كانت وأن يوضح كل شيء بالتفاصيل. فكان يسأل عما يأكل وعما يشرب وكيف ينام، وماذا يفعل، ومع من يتكلم، وأين يقضي سهرته ليلاً، ويسأل عن رؤياه وأحلامه. وكان الأب يجبر على الإجابة عما يسأل عنه خاصاً بابنه وابنته وزوجه والأخ عن أخيه والابن عن أبيه. وكان يسأل عما يقرأ وأي كتاب يطالع ومن يعيره الكتب ويعير الكتب هو لمن.

وكان يذهب الفرد إلى كرسي الاعتراف وأمامه كاهن يأمره أن يقول كل شيء بصوت مسموع مُدّعياً أنه ثقيل السمع. فيأخذ الفرد في الاعتراف بينما يسجل كاتب اختفى وراء ستار كل أقواله، فإذا ما لوحظ أنه من غير المرغوب فيهم ألقي عليه القبض وهو خارج من الكنيسة ويساق إلى المحكمة ويعاد استجوابه في الحال، ويراجع في الإجابة إذا ما تلعثم أو أراد أن يرجع عن قول اعترف به في الكنيسة، ويخشى المسكين أن يكون أمام سحرة أو أنبياء ويخاف ويلحقه الدهش فيقع في حيرة كبرى لأنه لم يعلم سر من نقل إلى الديوان أخباره.

وإذا لم يلق عليه القبض حال خروجه من الكنيسة فإن الديوان يبعث إليه في اليوم التالي برسول خاص فيكلمه بلطف وخبث ويقول له:

«أيها السيد لقد اجتمعت أمس عن طريق الصدفة بآباء الايمان المقدس وجاء ذكرك أثناء الحديث فرغبوا في رؤيتك لأعمال خاصة هامة تتعلق بك

ولهذا فإنهم ينتظرون قدومك غداً في الساعة كذا والرجا أن تحضر في الوقت المعين».

فإذا ما ذهب إلى الديوان زجّ في سجون الديوان للتعذيب أولاً أو ربما سيق للموت مباشرة. أما إذا هرب ولم يحضر فالويل لأسرته من تعذيب ولمقتنياته وأملاكه من مصادرة ونهب.

وقلما كان يمكن لأحد الهرب لأن جواسيس الديوان كانت رابضة على حدود البلاد كلها.

وكان المطلوب حضوره غالباً يزج به في السجن وهو لا يعلم لماذا سجن، ويعذب وهو لا يدري لذلك سبباً. وأحياناً كان يستجوب أمام رجال الديوان وقد تقنعوا بقناع أسود، وبعد الاستجواب يؤمر به إلى السجن والعذاب.

وإذا ما دفع به إلى السجان فكأنما ألقي بين ذراعي شيطان رجيم له قلب قُدّ من صخر ليس له من إحساس. وكان يصحب السجان راهب للاعتراف يمر على السجناء كل يوم. وكل راهب خبيث ماكر حقود سيّىء النية يتظاهر الواحد منهم بالشفقة على السجين من قبل الرياء والمداجاة والمداهنة ليعرفوا منه كل شيء يرمون إليه من اعترافات على الغير.

وكانوا يقسمون بالسيد المسيح أن لا يبوحوا بشيء مما يقول ولكنهم كانوا يدعون رجال الديوان يسمعون من وراء ستار رقيق ويقيدون ما يقول.

وعند المحاكمة كانوا يراجعونه إذا ما قال غير ما قال أولاً. وكان ينادى على الشهود وهم من رجال الديوان نفسه.

وكانوا يسألون الشخص المقدّم للمحاكمة عن كل ما يعرفه وأن يقسم على بقايا القديسين ومخلفاتهم انه صادق فيما يقول. وكانت تلك البقايا المقدسة عبارة عن عظام قديمة يعلوها الغبار وخرق ممزقة وأدوات وعصي.

فإذا أقسم قنعوا بسجنه حتى المحاكمة الأخرى والاستجواب الثاني. أما إذا رفض القسم على تلك الطريقة الوثنية فكان يزج به في أعماق السجون ويذوق فيه كل هوان وهون.

وكان أمر الديوان ينص على أن كل من يأبى القسم على البقايا المقدسة ويحتقر إيمان الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرومانية ـ وهو تكريم بقايا القديسين والشهداء ـ فيجب أن تصادر أملاكه وكل ماله وتضم إلى أرزاق وأوقاف الكنيسة.

وأمكن للديوان بواسطة ذلك القانون المشار إليه آنفاً أن يصادر أموالاً وممتلكات وعقارات لا تحصى يتصرف رجاله فيها، وتصبح من نصيبهم ونصيب شيعتهم السفاكة. ولا تسل عما فعلوه بالنساء والبنات.

وكان من الصعوبة بمكان على الفارين من وجه الديوان ومن شرور رجاله أن يجد مأمناً في الأرض إلا إذا لجأوا للجبال والمغاور فيموتون جوعاً وبرداً لأنهم إذا ما نزلوا إلى المدن طلباً للقوت عرفهم أعوان التفتيش وساقوهم إلى السجون والموت المحتم.

وقد قيل إن كل سفينة من سفن إسبانيا والبرتغال كانت تقل عيوناً لديوان التفتيش يروحون عليها إلى أمريكا وآسيا وإفريقيا ويرجعون يتعقبون كل فار من الديوان وسجونه، وقد حاول البعض الفرار إلى جزر الفيليبين فأُعيدوا كلهم وحلّ بهم قصاص صارم في إسبانيا.

وكان كل جاسوس للديوان يحمل إذناً مختوماً وموسوماً بطابع الديوان المقدس والبابا، وفيه أنه يجوز لذلك العين أن يسأل ويفتش عن الفارين أو المشتبه فيهم. وكل من سهل سبيل الهرب لأحد قبض عليه وزج به في السجن وأحرق بالنار وهو على قيد الحياة.

ويقول لوجين بيليتيان في كتابه (ديوان التفتيش) أنه مر على إسبانيا حين

من الدهر تحولت فيه إلى بؤرة جواسيس ووشايات جزويتية هائلة إلى آخر ما ذكره في ذلك الصدد. مثال ذلك:

أبلغت مسيحية الديوان بأن أحد المتنصرين المسمّى خوان مدنيا قد عاد لإسلامه وكان ذلك في شهر ديسمبر سنة ١٥٢٨ م (ربيع الثاني سنة ٩٣٦ هـ) وقالت إنها كانت تسكن مع أسرته سنة ١٥١٠ م (سنة ٩١٦ هـ) في منزل وكان يقيم هو مع ابنيه وابنته وصهره، فلاحظت أنهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمور أبداً. وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط كل يوم سبت وأحد.

وكان خوان هذا رجلاً هرماً جاوز السبعين من عمره، وكان يسكن شقوبية وصناعته عمل الأواني النحاسية. فاستدعته محكمة التفتيش ببلد الوليد لاستجوابه فقال: بأنه اعتنق الكثلكة سنة ١٥٠٢ م (سنة ٩٠٨ هـ) في نفس العام الذي نفي فيه المسلمون من تلك الجهات. وقال: بأنه لا يذكر أنه مارس شيئاً من تقاليد المسلمين وعاداتهم. أما عن امتناعه عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر فذلك لأنه لم يعتد ذلك وقد نصر وهو في سن متأخرة لما كان في الخامسة والأربعين، وعند مثل هذا العمر لا يسهل تعود شيء جديد. وهو يستحم مساء السبت وصباح الأحد لأن حرفته تضطره لذلك. وبين السبب الذي دعا المرأة التي قالت في حقه ما قالت: أنه حزازات في نفسها وسوء أخلاقها وقرّر بأنها كثيراً ما تكذب وأراد الاستشهاد بعدة متنصرين أمثاله لإثبات ما يقول. فأبت المحكمة أن تستمع منهم شيئاً. ولم يفد الرجل تأكيده بأنه شديد الإخلاص للكثلكة، ولا في التجائه إلى المجلس الأعلى وقرّرت المحكمة إحالته على التعذيب. فإذا أقرّ (بكفره) كان ذلك سبيلاً لإعادة النظر في أمره. أما إذا أصرّ فجزاؤه الغرامة. وهدّدته المحكمة بالتعذيب وأخذ إلى قاعة العذاب وجرّد من ثيابه، ورغم ذلك كله فإنه أصر على أقواله، وقال بأنه مضطر لنقض ما يقول لخوفه، فجلد وسير به في موكب حريق إرهاباً له وقضي عليه بغرامات وأموال يدفعها.

وقبض على شيخ متنصر وهو في سن السبعين سنة ١٥٦٠ م (٩٦٧ - ٩٦٨ هـ) لأنه كان يطالع كتباً عربية في التوحيد الإسلامي. ولم ينكر الرجل التهمة ولكنه عارض في اعتباره (كافراً) ولم يفد كلامه وتبريره لأعماله وحكم على الرجل بحرقه وزج به في السجن حتى يوم التنفيذ. ولما كان الشيخ مريضاً فإنه توفي في السجن. فرؤي أولاً حرق تمثال يرمز له ولكنهم عادوا وقضوا بإخراج جثته من القبر وإحراقها علناً في حفلة الحرق. وأن يلحق كفره وإثمه ذكراه فتبقى ملوثة، وتلحق أسرته فلا يباح لأحد أبنائه أن يتقلد مناصب أو أعمال ذكرنا شيئاً منها في هذا الكتاب.

ثم صودرت أموال الشيخ... وهو الشيء المهم جداً عند رجال التفتيش وشياطين محكمة مرسية.

وبعد ذلك بثلاث سنين قضت نفس تلك المحكمة بجلد متنصر مائة جلدة وبتسييره في موكب حريق إرهاباً له لطعنه بالعربية في قانون أصدره الديوان.

وفي السنة الثالثة اتهم شاب متنصر من أريولة بأنه ساحر، وأنه قد عاد إلى الإسلام.

وقلما كانت حفلة حريق تخلو من متهم بالسحر في تلك العصور سيّما في الجهات الشمالية.

وذكر من أبلغوا الديوان بأن ذلك الشاب قد أبرأ مرضى بوسائل غريبة لأنه محالف للشيطان، فزج به في السجن واعترف أمام محكمة مرسية بأنه عالج بعض المرضى ولكن بغير سحر أو شعوذة ولكن بواسطة عقاقير أما الحجب والتعاويذ فكان يقصد بها التأثير في نفس القوم الذين كانوا يعتقدون فيها وما كانوا يعرفون طباً ولا دواء سواها. وقال بأن الشفاء راجع إلى تلك العقاقير ذاتها. ولم يكن مسبباً عن أدعية وحجب. وعلى العموم فإنه كان أخذ

كتاباً عربياً من متنصر آخر فيه وصف لتعاطي الأدوية كما أن به ذكر بعض الأدعية والتعاويذ.

وقصد رجال المحكمة إلى اعترافه بأنه محالف للشيطان وأنه ساحر (طبعاً) إذا اعترف بذلك واستعمل معه كل الوسائل لحمله على ذلك حتى طمع في العفو باعترافه بأنه حليف الشيطان، ولكنه لا يعبده ولا يؤلهه أبداً وأن كل ذلك مناف للكثلكة. ولذا فهو يأسف على عمله وأنه يرجو من القضاة عفواً وصفحاً. ولما نال قضاته ما كانوا يبغون من اعترافه أمروا بجلده مائتي جلدة وبإرهابه بواسطة تسييره في موكب حريق، وحكموا عليه بخمس سنين في الأشغال الشاقة من أعمال السفن.

وحرقت متنصرة سنة ١٥٧٥ م لاتهامها بالكفر والالحاد وقد أجبرت على الاعتراف بذلك تحت تأثير التعذيب في سجن الديوان ثم عادت فأنكرت اعترافها ولم يفد كل ذلك أمام قسوة قلوب رجال الديوان.

وكل من تقدم للديوان بالدس في حق غيره لإهلاكه وتعذيبه أمكنه ذلك.

ومن التهم الغريبة أن فلاناً أنشد أغاني عربية أو أنه يكثر من الاستحمام كما هو عند المسلمين، أو لدفاعه ولو بكلمة واحدة عن محمد بن عبد الله أو لتكفين ميت بأثواب جديدة أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ وصبغ اليد بالخضاب أو لإحراز كتب عربية أو لقيامه إلى الصلاة أو صومه أو لوضوئه أو لوجود أوراق باللغة العربية أو قرآن عند المتهم فكان العقاب شديداً من إرهاب وحرق وجلد ومصادرة وتعذيب وتشهير بإركاب المتهم حماراً وقد علق بظهره لوحة فيها اسمه وتهمته. ثم يطاف به في أرجاء المدينة. وقد تفنن رجال الديوان في أحكامهم وفي تعذيبهم تفنناً عجيباً.

١٣ ـ سجون التفتيش بإسبانيا

أما سجون ديوان التفتيش بإسبانيا فقد كانت تحت الأرض على عمق يشبه عمق الآبار تقريباً.

وكانت رطبة قذرة فاسدة الهواء كالقبور.

وكانت الغرف صغيرة، فبعضها لسجين واحد، وبعضها لسجينين فأكثر إلى أربعة يحشرون في قبر واحد.

قال مؤرخ معاصر في وصفها ما معناه: انه من المستحيل أن يقدر الفكر على تصور حقيقة تلك السجون: تلك السجون الضيقة المظلمة الرطبة التي كان يقضي فيها أولئك التعساء شهوراً بل وسنين وقد حرموا الهواء النقي والنور والحركة. ومن الغريب أن هذه السجون كانت بدء العذاب وليست هي كل العذاب، مع أنها كانت من أكثر وسائل العذاب في العالم هولاً وشدة وكان السجين محروماً من الثياب إلا من خرق بالية تستر جسده قليلاً، فكان البرد يهرىء تلك الأجسام، وكان لا يعطى السجين إلا قطعة صغيرة من الخبز كل يوم في سجون التفتيش بإسبانيا. وكان الغرض من إجاعة السجين على هذه الصورة ليس للتعذيب بل ليضعف عن كل مقاومة ويقر ويعترف ويبوح بالأسرار التي يعلمها وبكل ما يرادفه.

وكم امتلأت تلك السجون بالضحايا البائسين. وكان في جملتهم خطيب شهير، كان يقول بوجوب اتباع ديانة المسيح البسيطة، أعني اتباع ما جاء في الأناجيل فقط، وآخر كان يقول بذلك الرأي ويعلمه للناس، فمات في سجنه

من البرد، وكان يتوسل للرهبان أن يحرقوه حياً ليتخلص من عذاب السجن فأبوا عليه تلك النعمة الكبرى؟!

وعذب عالم آخر بقطع يديه ورجليه وسل لسانه لأنه قال ذات مرة أمام نفر من معارفه وأصدقائه بأنه يستحيل عليه أن يصدق أن الله ذاته قد تجسّد وصلب.

ودفنت زوجه وهي حية في حائط الكنيسة جزاء عدم تبليغها الديوان عما سبقها اليه العيون فهي شريكته في حياته وشريكته في زندقته وقد علقوا في رقبتها صليباً ودفنوها حية.

وسجنت امرأة وابنتاها الصبيتان لاتهامهن بالكفر والزندقة لاتباعهن تعاليم الإنجيل فحسب، وزجت الأم في سجن انفرادي والابنتان في سجن آخر، ولبثن على ذلك زمناً طويلاً وهن على أسوأ حال. وقبل تنفيذ حكم الموت فيهن بالحرق توسلت الأم إلى السجان وهي تبكي وتنتحب أن يجمعها بابنتيها، ففعل لشدة ما توسّلت الأم والابنتان له. ثم أُعيدت الأم إلى سجنها وكانت النظرة الأخيرة لها من ابنتيها.

وسيقت الأم والابنتان للإقرار الأخير وخشي السجان أن يعترفن بمقابلتهن فاعترف هو للكاهن بما كان منه وجمعه للثلاثة شفقة وعطفاً عليهن ورجاه أن يسامحه، ولكن سرعان ما قبض عليه وزج به في أعماق السجون وهو مكبل بالأغلال والقيود وحوكم أمام (آباء الإيمان).

فكان الحكم عليه بأن يطاف به وهو عاري الجسد من وسطه إلى ما فوق ذلك وقد قيد بالسلاسل، ويمر على أسواق مدينة إشبيلية وأن يضرب مائتي جلدة على جسده العاري، وبعد ذلك يسجن عشر سنين.

ولمثل هذه الأسباب كان رجال السجن من أشد الناس قسوة قلوب.



منظر شنق وتعذيب

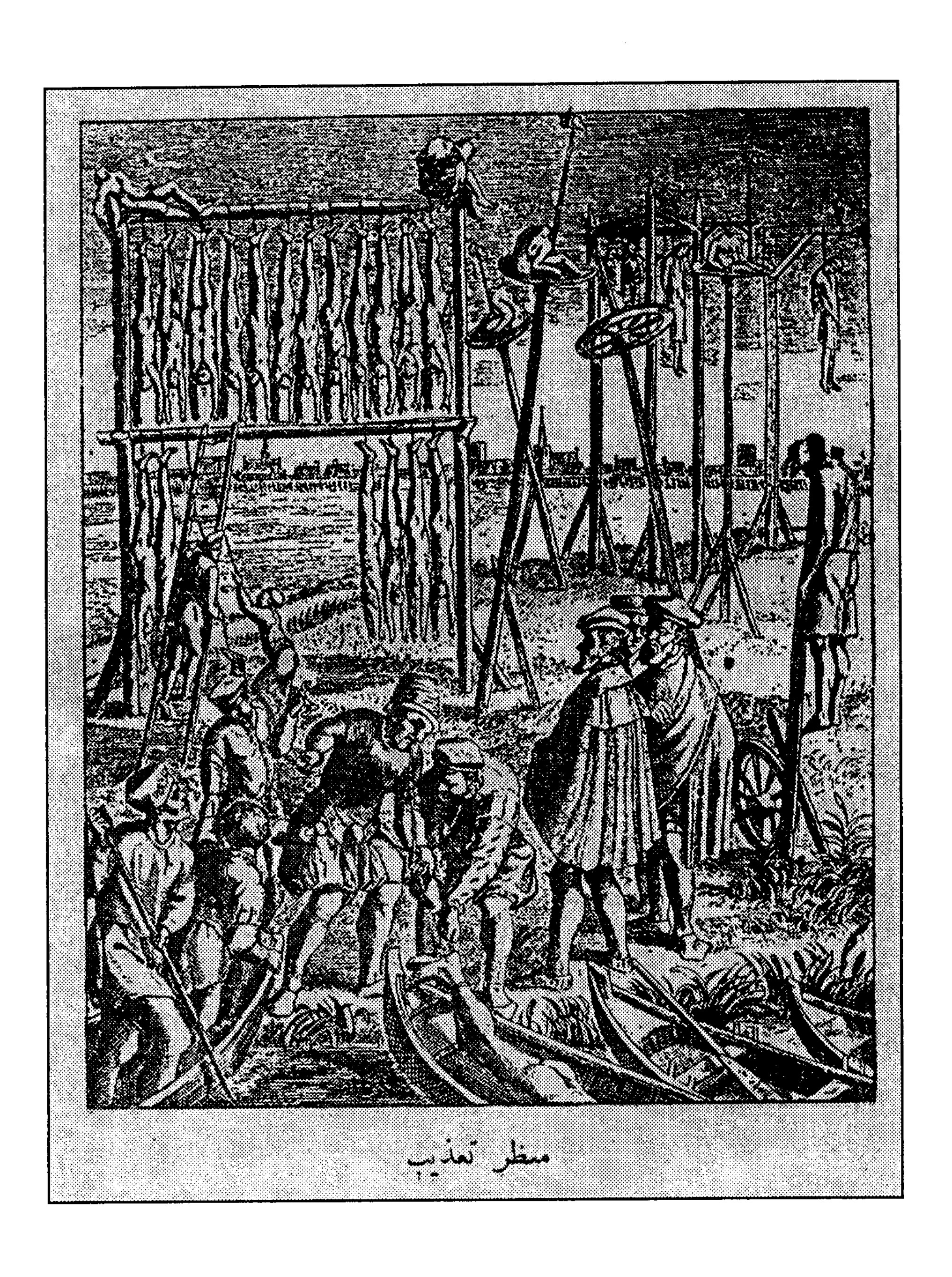
والغريب أن الديوان كان يعيّن محامين عن المتهمين لأجل الدفاع عنهم. وكانت مرافعة المحامي أكثر ضرراً من نفعها، إذ كانوا يخشون القبض عليهم واتهامهم بمشاركة الكفرة في أعمالهم. وكان المحامي ملزماً بقبول كل شهادة ولا يمكنه الطعن فيها. وكان ملزماً بقبول أي دليل وبرهان ضد من يدافع عنه مهما كان الدليل والبرهان. فالواقع أن الدفاع كان صورياً فقط فلم يكن بالطبع يجدي شيئاً إلا إذا كان للمحامي صداقة وله شفاعة عند رجل من رجال الديوان وكان الدفاع يقدم في مدة تسعة أيام، وبهذه الوسيلة فحسب كان للمتهم بعض الأمل في النجاة، وإلا فلا مفر من إعدامه مهما كان مقامه وعلو شأنه، ومهما كانت خدماته لوطنه، ومهما فعل من أعمال الخير.

وكل من اشتبه به حكم عليه بالسجن ما لا يقل عن عشر سنين إلى السجن المؤبد. ومن ثبتت تهمته واشترك في أي عمل اشتراكاً فعلياً سيم صنوف العذاب، ثم يؤمر به فيحرق.

وكان للملك وحده الحق في إصدار العفو عمن يريد من سجناء الديوان. وما كان يعفو إلا مكافأة لرجل من بطانته، أو نزولاً على رغبة خليلة من خليلاته فكان يعفو عن شخص أو عدة أشخاص إجابة لطلب خليلته التي كانت تتخير سيدة مثرية فتطلب من الملك إصدار العفو عنها نظير الاستيلاء على ما عندها من حلي وجواهر وإذا تم لخليلته ما تريد اقتسمت ما جاءها مع رجال المحكمة.

ومن غريب ما كان يحدث عند إبلاغ الحكم وإعلانه أن يحضر السجين أمام هيئة المحكمة ويخاطبه رئيسها قائلاً:

«لقد علمنا من مصادر حقيقية يوثق بها انك من مناهضي شرائع أمنا الكنيسة المقدسة، وأنك إذ قد أخطأت بذلك وهذا الخطأ هو عائد عليك أنت نفسك بذهابك إلى الهلاك الأبدي بعد الموت، ولهذا أمرت المحكمة بتعذيبك لردعك عن ذلك الشرك والضلال، وإذا مت أثناء التعذيب فان ذلك الموت يكون ككفارة عن شرورك».



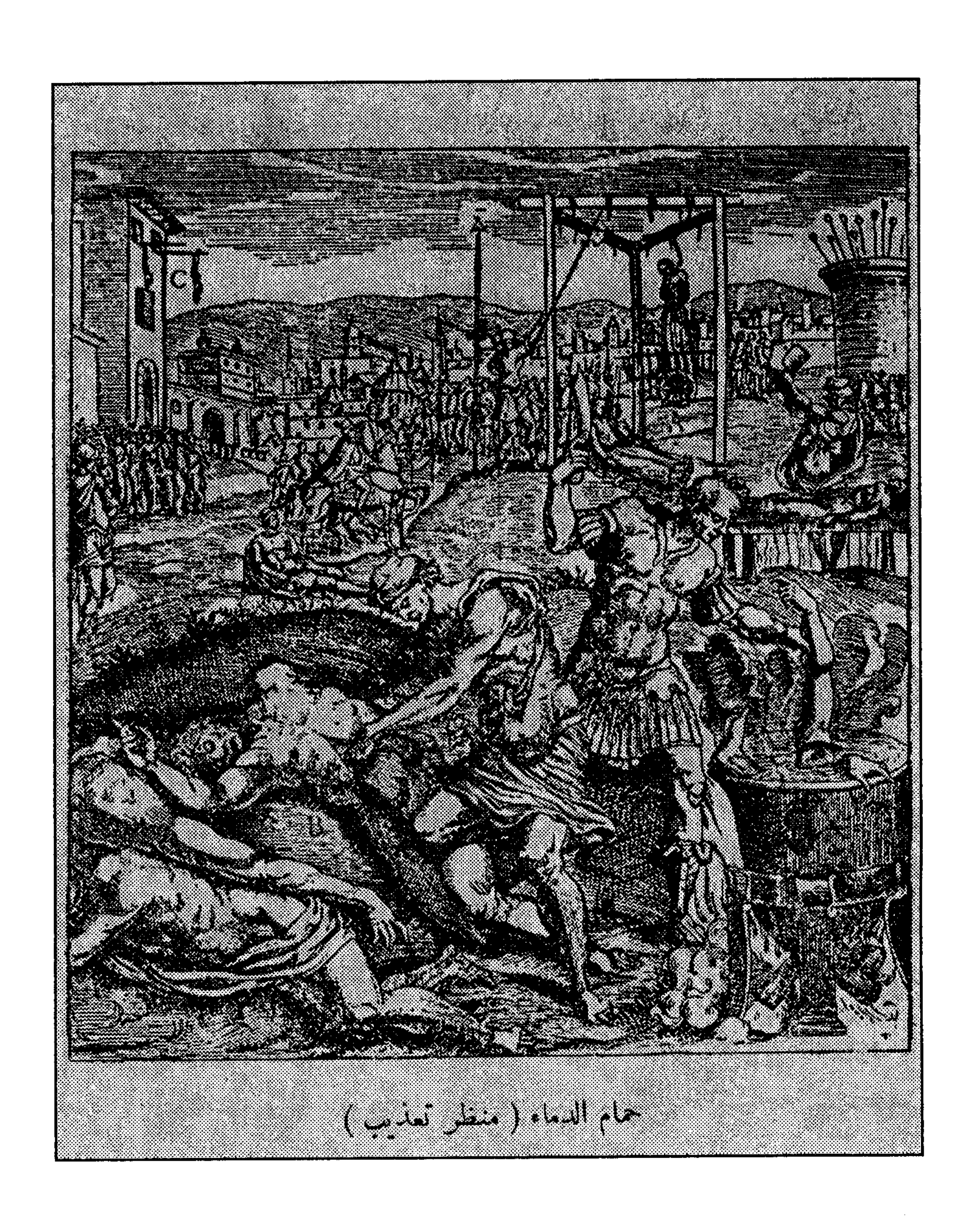
مسطر تعذيب

وكانت قاعة التعذيب في سجون التفتيش بإسبانيا تحت الأرض يصل إليها الإنسان بسلم ضيق مظلم كثير الانحناءات والزوايا، وكل جزء منها منفصل عن الجزء التالي بباب من خشب ضخم مصفح بالحديد.

وفي صدر البهو أعدت كراسي وثيرة لأعضاء المحكمة، وهم الرئيس ووكيله وللكتبة. وكان المعذبون يقفون انتظاراً لصدور الأمر.

وكانت أردية رجال المحكمة والديوان سوداء وكذلك كل ما على رؤوسهم وكانوا يتقنعون بقناع أسود لا يظهر منه سوى عيونهم، فكأنما هم الشياطين، ثم كانت توجد آلات التعذيب من مناشير وأثقال وكماشات وحراب ومكاو ومواقد لإحماء الحديد وكي أجساد المعذبين وأشياء أخرى لا يزال شيء كثير منها محفوظاً في متاحف العالم بأوروبا وأمريكا.

ومن المناظر التي كانت مألوفة في تلك الأبهاء ربط أحد أولئك المساكين بحبال حول جسمه كله وهو ممدد على (دكة) من خشب مرتفعة قليلاً ولا يزال رجال الديوان يشدون تلك الحبال فتضغط على جسمه العاري حتى تغرز فيه ويسيل الدم ولا يكفيهم هذا بل يحمي رجل من رجال التعذيب ملقطاً من حديد بالنار ويضغط به على أنف المعذب كيلا يتنفس، ويضع رجل ثالث خرقة مبللة بالماء على فم المسكين، وهو مضطر للتنفس من الفم لسد أنفه، فلا يزال يتنفس بقوة والخرقة تدفع إلى داخل حلقه وبذا يسود وجهه وتجحظ عيناه وتظهر عليه علامات الاختناق ويتدفق الدم من أنفه وعينيه وأذنيه فيشير كاهن لأحد رجاله، فيدخل الرجل أصابعه في فم الرجل ويجذب الخرقة بقوة إلى الخارج فتخرج وقد تلوثت بالدماء. ثم يخفف عنه العذاب قليلاً ويعاد استجوابه مرة أخرى وإجباره على الاعتراف، فإذا لم يتكلم ويقول ما يوافقهم أعادوا عليه العذاب مرة أخرى أو دفعوا به إلى السجن فالتعذيب حتى يقضي نحبه.



حمام الدماء (منظر تعذيب)

ومن بعض فظائع الديوان في التعذيب: الكي بالحديد المحمى والحرق بالزيت أو الزفت المحمى وتمزيق أعضاء الجسم بواسطة البكَر والحبال كما سبق أن ذكرنا ذلك في سجون البرتغال، وسمل العيون وسحب الأظافر من الأصابع وسل الألسنة وسحب ثدي المرأة من صدرها بواسطة (جذابات) خاصة بذلك.

وأما الذي كانت المحكمة تحرص على معرفته فهو:

١ ـ إذا كان الواقف أمامها مسلماً فعليه أن يخبرها عن بقية من يعرف من المسلمين وعن أماكن وجودهم وأماكن عبادتهم الخفية وأماكن صلاتهم.

٢ ـ إذا كان الواقف أمامها مسيحياً وليس بكاثوليكي فعليه أن يخبرها عن إخوانه في المذهب والعقيدة، وعن أماكن وجودهم وأماكن صلاتهم ان كان ذلك في إسبانيا كلها.

٣ ـ إذا كان من المفكرين الأحرار فعليه أن يخبر المحكمة عن آله وأصدقائه، وعن كل إنسان يظن أنه على شاكلته في الرأي، وعن أماكن وجودهم، وعن الكتب التي يطالعونها وعن مصادرها، وعمن باعها لهم وعن أماكن اجتماعهم وعن محافلهم.

٤ ـ إذا كان يهودياً فعليه أن يخبر المحكمة عن إخوانه اليهود وعن أماكن وجودهم، وإذا كان واحد منهم يزمع الهرب من إسبانيا سراً، وعن أماكن عبادتهم، وعما يفكرون فيه خاصاً بالكنيسة والديوان المقدس.

٥ ـ إذا كان من متنصرة اليهود أو المسلمين الجديدين في كثلكتهم فعليه أن يخبر المحكمة عما يفكر به خاصاً بدينه الجديد. وهل تنصر عن عقيدة أم لا يزال يزاول طقوسه الدينية في بيته سراً؟ ويخبر عن أهله وعن أماكن وجودهم وعن أصدقائه الذين يتكلم معهم وعن أفكارهم سواء كانت دينية أو أفكاراً حرة؟

فإذا لم يقرر المتهم الواقف أمام محكمة التفتيش ما تريده منه دفع به إلى الجلادين، فعذبوه ما شاؤوا أن يعذب. وإذا اعترف وذكر أسماء أشخاص قبض على أصحابها وسيقوا للسجون في مدة لا تتجاوز الأربع والعشرين ساعة.

والغريب أن كثيرين من المعذبين ما كانوا ليعترفوا بشيء رغم كل صنوف العذاب الذي يلاقونه، حتى إن رجلاً من رجال الديوان كتب رسالة يصف فيها ما رآه من صلابة عودهم، وأنهم كانوا يلاقون الموت ويفضّلون لقاءه عن أن يعترفوا بشيء أو يذكروا اسم أحد للديوان.

واشتهر من رؤساء ذلك الديوان الذين كانوا يصدرون الأحكام في سبع مقاطعات بإسبانيا، وإليك أسماء الرؤساء:

١ ـ توركويمادا

٢ ـ ديزا

٣ ـ سيزنيروس

٤ ـ فلويرنسيو

٥ ـ مانريكي

٦ ـ تاليو

٧ ـ لوابيزا

ويقال: ان هؤلاء السبعة أمروا بإحراق عدة آلاف من الناس وهم أحياء. وأفظعهم هو أولهم، فقد قتل وحرق آلافاً عديدة من بني الإنسان.

وإذا ما حكم بالموت أو بالحرق على فرد أو أكثر طيف بهم قبل يوم التنفيذ بيومين في المدينة وأسواقها وهم مكبلون بالأغلال والأصفاد الحديدية مطوقين بالسلاسل الغلاظ تحيط بهم فرقة من الجند تسلّحوا بالسيوف

والقضبان الحديدية على هيئة النبابيت. وفي خاتمة المطاف يحشر المحكوم عليهم في سجن واحد استعداداً ليوم التنفيذ.

وتأتي فرقة من جنود الديوان في منتصف ليل التنفيذ وعلى رأس الفرقة عرفاؤهم وقوادهم وجماعة القساوسة. فيفتح السجانون الأبواب ويخرجون أولئك البائسين، وعندها يبلغهم نذير الشؤم المكلف هؤلاء به من قِبَلِ المحكمة وبأن ساعة العقاب قريبة لا مناص منها. وكان المساكين يقابلون ذلك الخبر بثبات ورباطة جأش تدهش رجال الديوان الذين يكررون النصح لهم بالإقرار والاعتراف وهم يحمدون الله على قربهم من الراحة الأبدية التي هي خير من عذاب السجون الذي يلاقونه.

وبعد الانتهاء من طلب الاعتراف وطلب الغفران تكم أفواه أولئك المساكين ويلبسون لباس الإعدام الخاص بذلك، وهو لمن حكم عليهم بالموت حرقاً قميص أصفر غمس في شحم أو زيت وقطران وقد رسم عليه صور شياطين وأفاعي وتنين، ويوضع على رؤوسهم قبعات من ورق عليها مثل تلك الرسوم.

وكان السجناء الآخرون يصحبون المحكوم عليهم وقد ارتدوا لباساً آخر. وسبب تلك الصحبة هو إرهابهم وتهديدهم بمثل تلك المواقف الرهيبة والمناظر المؤلمة إذا هم لم يطيعوا الديوان ولم يعترفوا للمحكمة.

وإذا ما انبثق الفجر حضر إلى السجن كل رجال الديوان ليأخذ كل واحد منهم مكانه ويقوم بما عهد إليه من عمله عند تنفيذ الحكم.

وعند الساعة السادسة صباحاً يخرج السجناء من السجن إلى الميدان الذي أمامه، فيرون سماطاً قد مد ومائدة كبيرة عليها ما لذ وطاب من شهي الطعام والخمور المعتقة، فيؤمرون بالجلوس عليها وتناول آخر فطور لهم في هذه الحياة الدنيا.

وسبب تقديم ذلك الطعام والشراب أن يخدع رجال الديوان الشعب

الجاهل المحتشد بأنهم يعاملون سجناءهم وغرماءهم معاملة طيبة وأن هذا مثال مما كانوا يعطون في سجونهم، مع ما علمنا من سوء معاملة وتغذية مهلكة. وأي إنسان يكون على مثل حال أولئك التعساء وتكون عنده شهوة للطعام، وهو على مقربة من الموت حرقاً؟!

لقد كانت الموائد الممدودة لضيوف الحريق نوعاً من أنواع التعذيب النفسي

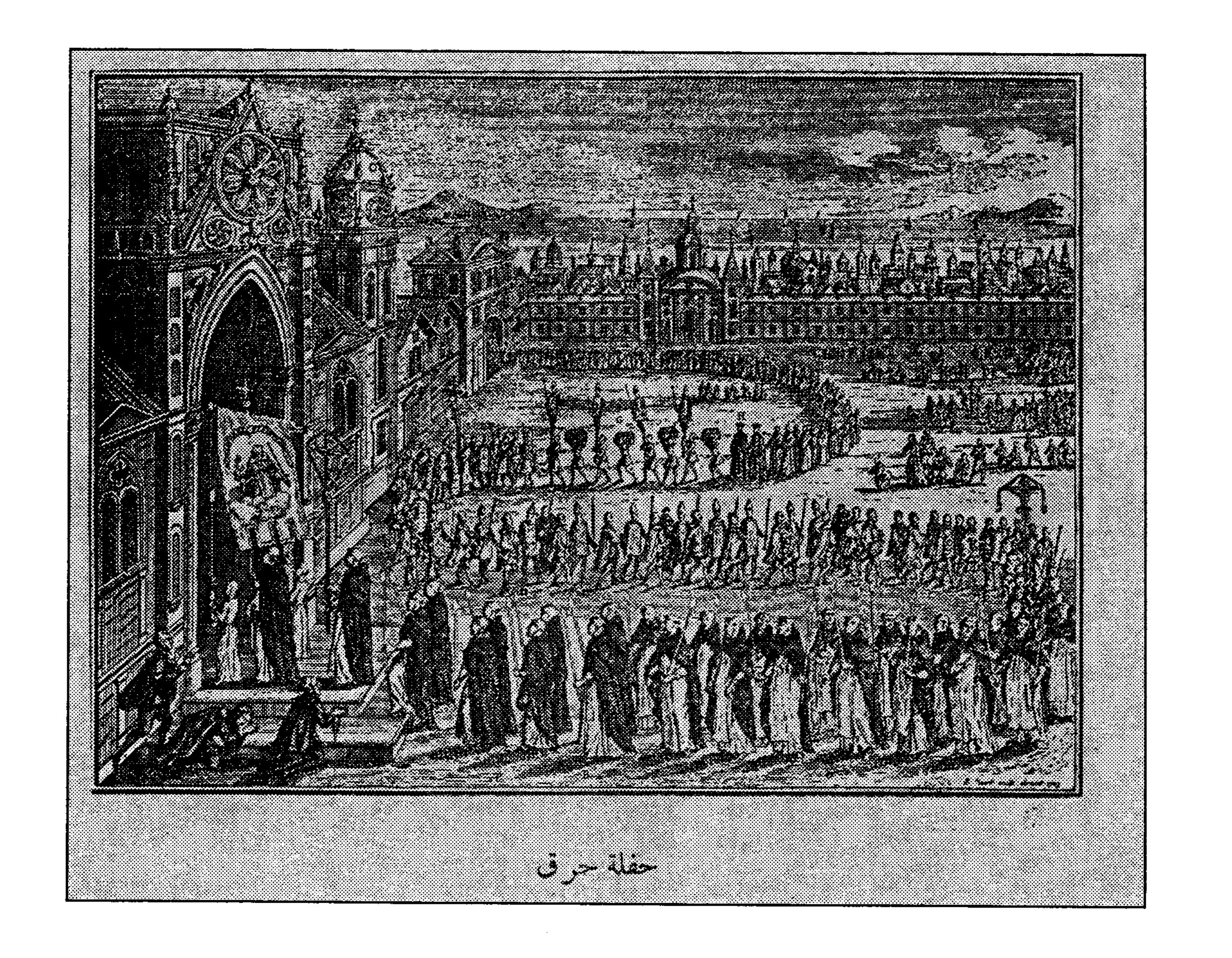
وكان إلى جانب مائدة الطعام مائدة عليها أطواق حديدية توضع في الرقاب وأخشاب توضع في الفم على شاكلة لجام الجياد.

فإذا ما رفعت راية الديوان إشارة للبدء تقدم جلاد من الضحايا وقال لهم:

يا ضحايا ديواننا المقدس إن هذه الأطواق الحديدية لرقابكم وهذه الكمامات لأفواهكم، فتقدموا ويلزم كل منكم أن يتقدم فيضع طوقه في عنقه وخشبته في فمه، فيلزمون الصمت الأبدي.

أما أردية الرهبان فملابس حمراء وقلائد ذهبية ومواكب فخمة يسير فيها كل الرهبان والكهنة وخدم الكنيسة وقد ارتدوا أفخر الحلل والحلي الثمين.

ويتقدم الملك ورجال البلاط وحكومته ورجال القضاء والقواد، وتقف ألوف من الخلق ليروا حرق الكفار، وقد هيّىء الحطب وأعد كل شيء لإصعاد المساكين على المحارق.



حفلة حرق

١٤ ـ موكب الحريق

يخرج الموكب من ساحة السجن إلى ساحة الحريق. ويتقدم الجمع تلاميذ المدارس الإسبانية في ثياب خاصة، وبرفقة معلميهم من رجال الدين، ويصحبهم ألف رجل قد حملوا ألف راية من رايات الكنيسة، وإلى جانب كل راية كاهن يترنم بترنيمة محزنة. ثم جماعة تحمل صور القديسين وأعلام الجماعات الدينية، ثم السجناء المعذبون وفي رقابهم أغلال، وإحضار التلاميذ ذلك المشهد الرهيب هو لتخويفهم وإجبارهم على طاعة الديوان. وكانوا يلزمونهم بحمل مشاعل مطفأة لتذكرهم بأنها سوف توقد إذا هم صمموا على عصيانهم. ويسير وراء هؤلاء من أطاعوا الديوان ونبذوا الكفر والإلحاد وعفا عنهم الديوان ولكنه جعلهم تحت المراقبة.

ومن وراء هؤلاء يسير من حكم عليهم بالحرق وكانوا يمشون بخطى ثابتة مرفوعي الرأس، على وجوههم سيما العظمة والسكينة والازدراء بالحياة. وقد كمت أفواههم كما أشرنا إلى ذلك آنفاً كيلا يتكلموا مع أحد من الشعب أو يقولوا شيئاً وقد كبلت أيديهم بالسلاسل وسار كل واحد يحرسه الجند والرهبان. ويأتي بعد ذلك صفان طويلان من جند إسبانيا ومن خلفهم الحكام والقضاة ورجال بلاط الملك ونائب الملك أو الملك نفسه، ثم أمراء الأسرة المالكة وأبناء الأشراف والكل في أفخر حلة وأجمل زينة كما لو كانوا ذاهبين إلى وليمة عرس أو حفلة تتويج. ثم رجال الديوان والراهبات، وكل رجال الدين والكنائس يحيطون بأمراء الأسرة المالكة والملك، وهو قلما كان يتخلّف عن حضور تلك المشاهد.

ثم ينقطع سير المحتفلين قليلاً ويظهر بعدئذ وكيل المملكة العام الذي صادق على حكم الحرق وهو يسير في أبهة وعظمة، وقد أفرد له هذا المكان على تلك الصورة في الحفلة كإكرام له اختصه به الديوان، ثم يظهر علم الديوان وكان من حرير أحمر كبيراً جداً يرفع على صليب وقد ذهبت حواشيه وجوانبه وأطرافه ويتقدم العلم رئيس الديوان وهو يسير مختالاً فخوراً لأنه كان يعتقد أنه ظل الله في أرضه وكان الملك نفسه ومملكته إسبانيا تخشاه فهي طوع بنانه ـ فبين شفتيه الموت أو الحياة ـ يحيط به الجند وقد شهروا حرابهم واستلوا سيوفهم.

ويسير خلف هؤلاء الشعب جماعات جماعات وقد انخلعت أفئدة أفراده خوفاً ورعباً ويطوف الموكب كل طرق المدينة الهامة. وكلما وصل إلى ميدان يقف وتقام صلاة قصيرة، ثم يتابع السير، حتى يصل إلى أكبر ميدان بالمدينة المسمى (بميدان السوق) أو (بلاسا دومركادو) حيث أعدت كراسي مذهبة ودكة مرتفعة لجلوس الملك ورجال البلاط والحكام والأمراء وكبار رجال الديوان. وأمام ذلك وفي جوانب الميدان رفعت أعلام عديدة.

ويقف صفان من المحكوم عليهم حرقاً أمام مكان جلوس الملك وهم في انتظار الحرق. وقد أعد الحطب أكواماً مكدسة.

ويأخذ بعض الكهنة يعظونهم عظات ويطمئنونهم على انهم لن ينسوهم في صلواتهم وانهم لا يحرمونهم من محبتهم الأخوية؟؟؟؟ والمساكين وقوف لا يتكلمون وقد كمت أفواههم.

وفي بعض الأحيان كان رجال الديوان يضطرون أقارب المحكوم عليهم إلى إضرام النار بأيديهم وإعدادها لحرق أقاربهم.

ويظل الحال على ذلك حتى يصل رئيس الديوان فترفع رايته في وسط الميدان ويتقدم إلى الملك فيقف له إجلالاً هو ومن في حضرته من أساقفة يناولونه الصليب فيخاطب رئيس الديوان الملك قائلاً:

يا صاحب الجلالة

بينا تحمل في يدك هذا الصليب المقدس ترانا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا على أن تعضدوا الديوان المقدس وأن تثبتوا سلطتنا في هذه البلاد.

فيقسم يميناً يمليها عليه الأساقفة أمامه. ثم يستمر الرئيس قائلاً:

وأن تقسم يا صاحب الجلالة على أن كل ما يعمله ديوان التفتيش وكل ما يجريه من الأحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية وانه مطابق أيضاً لشرائع بلادكم التي ترمي إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية.

فيقسم الملك بما يملى عليه من الأيمان المغلظة.

فيستمر الرئيس في خطابه قائلاً:

ليبارك الله جلالتكم وليمكنك من الحكم طويلاً في الأرض ما دمت مسنداً لشرائع الديوان المقدس وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية.

وبعدئذ يجلس الملك في كرسيه ويتقدم كاتب الديوان إلى منتصف الميدان ـ وكانوا يتخيرونه رجلاً كبير الهامة ضخم الجثة جهوري الصوت ـ فيقف على دكة مرتفعة ويأخذ في تلاوة صورة الحكم من ورقة في يده، والناس في صمت كأن على رؤوسهم الطير، ويذكر فيها من حضروا الحفلة وهم على ذمة الحريق ولا يزال الديوان يشك في صدق مسيحيتهم إذ كانوا من بقايا المسلمين بالأندلس أو من متنصرة اليهود مثلاً، وأن الديوان اعتقلهم للتأكد من أمرهم فإذا تأكد من مروقهم عن الكثلكة أمر بإحراقهم. ويقول: انه لما تأكدت المحكمة من استحالة إيمان هؤلاء فانها قد حكمت عليهم بالموت حرقاً.

وبعد الانتهاء من تلاوة الحكم يتقدّم رئيس الديوان ويمنح الغفران

لأولئك المساكين، ويأمر بترتيل مزمور مطلعه: ارحمني يا رب كما شاءت رحمتك.

فيرتل الكهنة والناس ذلك المزمور بصوت عال.

ومكان الحرق أو الشنق عبارة عن أربعة أعمدة وأحياناً عمود واحد أو جذع شجرة مرتفع، وحوله أكوام الحطب من كل جهة في علو ثلاثة أمتار تقريباً من الأرض ويكون على هيئة مصطبة مربّعة في أعلاه، والعمود بارز منها. فكانوا يوقفون المحكوم عليه إلى هذا العمود، ويربطون حبلاً في رقبته ويربط الحبل إلى العمود. ويلف الجلاد الحبل على الرقبة عدة مرات وفي كل مرة يشتد في ضغطه حتى يختنق المسكين، وأحياناً كانت الحبال تشد إلى وسطه فقط إذا ما توسل المسكين إليهم أن لا يخنقوه بل تترك النيران تأكله وهو حي.

ثم يصعد كاهن وفي يده صليب من العاج يعرضه على المسكين ليقبله قبل حرقه، وذلك قبل إضرام النار بقليل.

وكل من مات في سجون الديوان تحرق جثته أيضاً كيلا يعرف له قبر.

وإذا ما انتهى الكاهن من عمله أضرمت النيران دفعة واحدة في الحطب بينما يترنم الكهنة ويصلون ويبحث جواسيسهم في وجوه الشعب ويستمعون لما يقال؛ فمن تأفف أو أظهر عطفاً على المحروقين، أو أبدى أي إشارة اشمئزاز ألقي القبض عليه في الحال، وكثيراً ما كان يضم إليهم في التو والساعة.

كل هذا يحدث والحكومة ملزمة بإطاعة رجال الديوان. وكانت تبنى له السجون وتقوم على حراستها من الخارج وتقدم الحطب وقوداً لنيران المحارق وتبعث بجندها للقبض على من تعذّر على الديوان القبض عليه، وإذا أبى حاكم إطاعة أوامر الديوان صدر أمر بحرمانه من الكنيسة فيسقط ما له من

حرمة مهما كان شأنه وإذا تم لهم ذلك قبضوا عليه هو وأسرته غالباً وزجوا بهم في أعماق السجون وعذبوهم العذاب الأليم حتى الموت والحرق.

وإذا ما تشفع إنسان بالبابا من أجل إنسان بعث البابا باسمه إلى الديوان فيكون ذلك عند رجال الديوان المقدس جرماً جديداً، وجريمة عظيمة، إذ يزدادون غيظاً على المسكين الذي تشفع فيه «الأب الأقدس». والذي يزيدك دهشة:

أن كل هذه الأحكام الظالمة الفظيعة كانت تصدر باسم «الأب الأقدس» أي البابا نفسه.

وظل ذلك الديوان قائماً في إسبانيا وبلاد البرتغال زهاء أربعمائة سنة بدون انقطاع.

وقد خضدت شوكته أوائل القرن التاسع عشر نظراً لانتشار الآراء الحرة في أوروبا عقب الثورة الفرنسية والأمريكية.

٥ ـ تقرير عن الديوان بمجريط

وإليك ما كتبه الكولونيل ليمونسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال:

كنت في سنة (١٨٠٩ م توافق سنة ١٢٢٤ هـ) ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي كان يقاتل في إسبانيا، وكنت مع فرقتي من الجيش الذي احتل مدريد العاصمة وكان الأمبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م (سنة ١٢٢٣ هـ) بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، ولكن هذا الأمر أهمل ولم يعمل به بسبب الحالة الحربية والاضطرابات السياسية التي كانت سائدة أيامئذ، وعلى ذلك صمم رهبان الجزويت أصحاب ذلك الديوان على أن يقتلوا أو يعذبوا كل فرنسي يقع في أيديهم انتقاماً من ذلك القرار، وذلك لإلقاء الرعب في قلوب الفرنسيين بطريقة تضطرهم إلى إخلاء البلاد ليخلو لهم الجو.

وبينما أنا أسير في إحدى الليالي بين الساعة العاشرة والحادية عشرة في شارع من شوارع مدريد لا يمر فيه الناس كثيراً إذا باثنين مسلحين قد هجما عليّ يريدان قتلي، فدافعت عن نفسي دفاعاً كبيراً، ولم ينجني منهم إلا سرية فرنسية قادمة كانت تقوم بطوافها في المدينة، وكانت السرية من الخيالة تطوف البلد طول الليل بالمصابيح لحفظ النظام. ولما شاهد القاتلان ذلك لاذا بالهرب، وتبين لنا أن هذين الرجلين من جنود ديوان التفتيش عرفنا هذا من ملابسهما. فأسرعت إلى الماريشال سولت حاكم مدريد العسكري أيامئذ وأطلعته على ما حدث فغضب الماريشال، وقال أنا لا أشك بأن من قتل ويقتل

من الجنود كل ليلة إنما يكون بأيدي أولئك الأشرار، ولا بد لنا من معاقبتهم وتنفيذ قرار الامبراطور والآن لك أن تأخذ معك ألف جندي وأربعة مدافع وتهاجم دير ديوان التفتيش وتقبض على أولئك الرهبان الأبالسة. هذا إذا رأيت أن ما ينسب إليهم من الفظائع حقيقي. ولنقتص منهم بمحاكمتهم أمام مجلس عسكري.

وعند الساعة الرابعة صباحاً ركبت على رأس تلك الحملة وقصدنا دير ديوان التفتيش، وكان يبعد خمسة أميال عن مدينة مدريد. فلم يدر الرهبان إلا والجنود تحيط بديرهم والمدافع منصوبة عليه. وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بالقلاع، وله أسوار عالية جداً تحرسها فرقة من جند اليسوعيين. فتقدمت من باب الدير وخاطبت الحارس الذي كان واقفاً على السور فوق الباب وأمرته باسم الامبراطور نابليون أن يفتح الباب. وظهر لي أن هذا الحارس قد التفت إلى الداخل وأخذ يكلم أشخاصاً لا نراهم، ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص، ثم انهال علينا الرصاص من كل جهة، فقتل بعض رجالي وجرح البعض، عندئذ أمرت الجنود أن يهاجموا الدير ويقتحموه عنوة لأن اطلاق الرصاص من الجزويت كان كعلامة رفض وانهم لا يفتحون الباب إلا بالقوة. وانهال الرصاص على الباب فأخذنا بإطلاق المدافع على أسوار الدير وعلى الباب وجاء الجنود بأخشاب سميكة اتخذوها كمتاريس لهم تقيهم رصاص جنود التفتيش الذي انهمر كالمطر الغزير. وبعد أن دامت المعركة نصف ساعة فتحت ثغرة واسعة في الحائط دخل منها الجيش وامتلك الدير. وكنت أنا وبعض الضباط الآخرين أول الداخلين.

فأسرع رهبان اليسوعيين للقائنا مرحّبين بنا بوجوه باشّة، مستفهمين عن سبب قدومنا على هذه الحال، كأن لم يكن من شيء بيننا، ولم تكن موقعة، ولم يكن قتال بين جنودنا وجنودهم ثم انهالوا على جنودهم تعنيفاً وتأنيباً لمقاومتهم لنا. وقالوا لهم: ان الفرنسيين أصدقاء لنا، فمرحباً بهم.

فما أغرب ذلك النفاق والخبث الماكر!!

ولكن لم تنطل حيلتهم علي، بل أمرت الجنود بالقبض على أولئك القساوسة المنافقين وعلى جنودهم كلهم، لتقديمهم لمجلس عسكري.

وأخذنا نبحث عن قاعات العذاب المشهورة، حيث كان بها من صنوف التعذيب ما تقشعر من ذكره الأبدان، وتتألم منه النفوس الإنسانية الرحيمة.

وطفنا بغرف الدير فرأينا ما بها من أثاث فاخر ثمين ورياش وكراسي هزازة وسجاجيد فارسية فاخرة وصور ثمينة نادرة ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض تلك الغرف من خشب المغنى المصقول المدهون بالشمع بكيفية عجيبة. وكان شذا العطور يعبق في أرجاء تلك الغرف. فهي أشبه بأبهاء القصور الفخمة الكبيرة التي لا تكون إلا لملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو.

وعلمنا أن تلك الروائح العطرية كانت تنبعث من شمع موقد دائماً أمام صور رجال تلك العصابة اليسوعية. ويظهر أن الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكاد يذهب مجهودنا سدى في محاولة العثور على قاعات التعذيب، بعد أن فحصنا كل غرف الدير وممراته وأقبيته. ولم نجد شيئاً يدل عليها. فعزمنا على الخروج من الدير، وكدنا نقنع بتقرير أولئك اليسوعيين أمام المجلس العسكري وكانوا يقسمون ويؤكدون أن وجود ما يشاع عنهم من أمور في ديرهم المسيحي ليس إلا تهمة كاذبة باطلة، وأنها حديث خرافة. ولكنهم يحتملون ذلك في سبيل الله. وصار زعيمهم يؤكد لنا ما يقول بصوت خافت وهو خاشع الرأس وعيناه مغرورقتان بالدمع الهتون من دموع التماسيح. وكادوا يخدعوننا فأعطيت الجنود الأوامر بالاستعداد لمغادرة الدير، فاستمهلني الليفتنانت دي ليل، وقال: أتسمح لي يا حضرة الكولونيل أن أقول لك إن مهمتنا لم تنته حتى الآن.

فقلت له: ألم نفتش كل الدير ولم نعثر على شيء، ففيم ترغب؟

قال: أجل قد فتشنا، ولكني أرغب في فحص أرض هذه الغرف، وأدقق في فحصها وامتحانها. فان قلبي يحدثني بأن السر هو في الأرض. وأن هذه الغرف الفخمة تستر تحتها ما جئنا نبحث عنه. وعندها نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات ذات معنى.

وأذنت للضابط بالبحث.

فأمر الجنود عندئذ برفع الأبسطة والسجاجيد عن الأرض، فرفعت. ثم أمرهم بأن يصبوا ماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة. ففعلوا وكنا نرقب الماء فإذا بالأرض تبتلعه في إحدى الغرف. وإذا به يتسرب إلى أسفل. فصفق الضابط دي ليل من شدة الفرح.

وقال: ها هو ذا الباب. انظروا فنظرنا. وإذا بالباب قد ظهر، وهو قطع من أرض الغرفة يفتح بطريقة شيطانية، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس.

وأخذ الجند في تكسير ذلك الباب العجيب بقحوف بنادقهم، وأحاطت فرقة من الجند بعصابة اليسوعيين، وقد اصفرت وجوههم وعلتها غبرة. وخارت قواهم من الفزع والهلع.

وفتح الباب، فظهرت لنا سلم تؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت وأخذت شمعة كبيرة أطول من متر ارتفاعاً أنيرت أمام صورة أحد أُولئك الرؤساء لمحاكم التفتيش ورؤساء الديوان المقدس.

ولما هممت بالنزول وضع أحد اليسوعيين يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: أرجوك يا بني أن لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال. لأنها شمعة مقدّسة!!!

فقلت له: هذا حق يا هذا. فانه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملوثة بدم الأبرياء. وسنرى الآن من هو النجس منا. ومن منا القاتل السفاك!



الفتاة البكر الحديدية

وهبطت على السلم يتبعني بقية الضباط والجند شاهري سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج. فإذا بنا في غرفة كبيرة مربعة، كانت تسمى عندهم بقاعة المحكمة، وفي وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل كانوا يقيّدون فيها فرائسهم التي تكون رهن المحاكمة.

وأمام ذلك العمود (عرش الدينونة) كما كانوا يسمونه هم. وكان عبارة عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش، وإلى جانبي ذلك المقعد المرتفع أماكن لجلوس جماعة القضاة. وكانت أوطأ بقليل من المقعد.

ثم توجهنا لغرف آلات التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت كل تلك الغرف إلى مسافات كبيرة. وكانت كلها تحت الأرض. وقد رأينا بها ما يستفز النفس ويدعوها إلى أن تتقزز ما حييت.

رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي فيبقى سجين العمودية به واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممدداً حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى ويسقط اللحم عن العظم. ولتصريف الرائحة الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية فتحت فتحة (كوة) صغيرة إلى الخارج.

وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا تزال في أغلالها سجينة مقيّدة. أما السجناء فرجال ونساء تتفاوت أعمارهم بين السبعين والأربعة عشر سنة.

وقد تيسر لنا فكاك بعض السجناء الأحياء من أغلالهم وهم على آخر رمق من الحياة. وقد جن بعضهم خوفاً وهلعاً ولكثرة ما لاقوا من عذاب.

وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم في التعذيب، وقد اضطر الجنود أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها النساء السجينات.

وأخذ السجناء إلى النور تدريجياً لئلا تؤثر مفاجأة النور على أبصارهم.

وقد أخذ السجناء يبكون فرحاً وأخذوا يقبلون أيدي الجنود وأرجلهم لأنهم أنقذوهم وأعادوهم إلى الحياة بعد الموت المحقق والعذاب الأليم.

ولما انتهينا من ذلك توجّهنا إلى غرف آلات التعذيب. فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان.

فقد عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم. وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين، كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على كل الجسد فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة. وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، توضع فيه الرأس المعذبة بعد أن تربط أيدي وأرجل وجسم صاحبها بالسلاسل، فلا يقَوى بعد ذلك على الحراك وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب قبل الاعتراف. ويبقى المعذّب على حاله هذا حتى يموت.

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة الصورة مصنوعة وهي على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون المعذب الشاب فوق هذه الصورة ويطبقون عليهما باب التابوت بسكاكينه وخناجره بعنف فتمزق السكاكين جسم الشاب وتقطعه إرباً إرباً.

كما أنا عثرنا على عدة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لجلد المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظام.

* * *

وصل خبر الهجوم على دير ديوان التفتيش إلى مجريط. فهب ألوف من الناس ليروا ما حدث وخيل إلينا أنه يوم القيامة.

ولما شاهد الناس صنوف التعذيب وآلاته الجهنمية ورأوها رأي العين جن جنونهم، واشتعلوا بنيران الغيظ. كانوا كمن مسه الجن فأمسكوا برئيس أولئك اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فلم تشفق عليه ودقت عظامه دقاً وسحقتها سحقاً، وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين تمزيقاً.

ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بباقي طغمة اليسوعيين وبقية الرهبان ما فعلوه أولاً.

ولم يمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهباً من تلك العصابة الآثمة.

ثم أخذ الشعب ينهب ما بالدير وقد عثرنا على أسماء ألوف من الأغنياء في سجلات الديوان السرية، وهم السراة الذين قضوا عليهم لابتزاز أموالهم. وكانوا يضطرونهم إلى كتابة إقرارات تحول بموجبها أموالهم لليسوعيين. فإذا ما تم لهم ذلك عذبوهم وقتلوهم بآلاتهم.

ويمكنني أن أقول بأن ذلك اليوم كان أعظم يوم تاريخي شهده العالم بعد يوم الباستيل وقد عانق الآباء أبناءهم والأبناء آباءهم بعدما مر بهم من أيام العذاب وقبلت النساء بناتهن اللواتي قضي على عفافهن في تلك المطابق اغتصاباً وانهال التقبيل على أيدي وأقدام الجند، خصوصاً من النساء اللواتي انتهكت طغمة الديوان المنجس عفافهن واغتصبوهن في تلك المطابق اغتصاباً.

والحق أقول إن القلم واللسان ليعجزان عن وصف ما رأيناه في ذلك الدير من الفظاعة والبربرية التي لا تخطر على عقل بشر سوى الشياطين الذين قد يعجزون هم أيضاً عن الإتيان بمثل هذه الأعمال.

(انتهى)

* * *

ولما عاد الديوان المقدس إلى الحياة مرة أخرى سنة ١٢٢٩ هـ - ١٨١٤ م بإسبانيا كما لو كان يستفيق الإنسان للمرة الأخيرة قبل أن تزهق أنفاسه.

وقد وصف مؤرخ إسباني ما شاهده بنفسه عندما أريد تنفيذ حكم الديوان بحرق ثلاث نساء في صباح يوم من شهر يوليو من السنة المذكورة (شهر شعبان سنة ١٢٢٩ هـ) وكانت تهمتهن التجسس لجماعة البنائين الأحرار (الماسون) قال المؤرخ:

تجمع الناس أمام السجن وهم يتغنون بأناشيد وأغان شجية، وكانوا من حثالة القوم ورجال الديوان.

ثم أخرجت النسوة وكل واحدة قد أركبت حماراً وظهرها إلى رأسه، وقد تعرين إلى أوساطهن. وقد طليت أبدانهن بالعسل ونثر فوقه ريش. فأخذ الناس يصيحون: ها هن هؤلاء الكافرات الملحدات، وصوبوا عليهن الحجارة يرشقونهن بها، ونالهن ضرب كثير وأذى وقذف بالأوحال والأوساخ والبصق على وجوههن وأجسادهن.

وسار الموكب في الطرقات والكنائس تصلصل أجراسها حتى أوقفن أمام كنيسة منهن وتليت عليهن صورة الحكم، تلاه أحد رجال الديوان ضخم الجثة جهوري الصوت واستمع الناس إلى ما يقول، ثم سار الموكب مرة أخرى وسال الدم من أجساد النسوة من تحت الريش حتى جيء بهن إلى ساحة الحريق فأحرقت أجسادهن، وهن لا يعين لكثرة ما نالهم من الأذى والقساوسة يحمسون الشعب الجاهل.

وكان يحدث أن يسلم النسوة ليلة التنفيذ لرجال من الديوان ليفسقوا بهن طول الليل وينفذ الإحراق في الصباح.

٧ ـ رثاء الأندلس
لأبي البقاء صالح بن شريف الرُّنْدي

يتفجع فيها على الأندلس؛ الفردوس الإسلامي المفقود، وما أصابها وأصاب المسلمين فيها من النكبات والفواجع، وهو صادق الوصف وفي كل شطرة إشارة ومغزى قال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يُمزِّق الدهرُ حتماً كلّ سابغة ... إذا نبت مَشْرَفيّات وخُرصان
ويَنتضِي كلّ سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يَزَن والغِمْد غُمْدان
أين الملوك ذوو التيجان من يَمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجان؟
وأين ما شاده شدّاد في إِرَم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟
وأين ما حازه قارونُ من ذهب ... وأين عادٌ وشدّاد وقَحْطَان؟
أتى على الكل أمرٌ لا مَرَدّ له ... حتى قَضَوا فكأن القومَ ما كانوا
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطَّيْف وَسْنَانُ

***

دارَ الزمانُ على دارًا وقاتله ... وأَمَّ كِسرَى فما آواهُ إيوان
كأنما الصَّعْب لم يَسهُل له سَبَبٌ ... يوماً ولاَ مَلَكَ الدنيا سليمان

***

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنَوّعة ... وللزمان مَسَرّاتٌ وأحزان
وللحوادث سُلْوَانٌ يُسَهلها ... وما لِما حَلّ بالإسلام سُلْوان
دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاء له ... هوى له أحُدٌ وانْهدّ ثَهلان
أصابَها العَين في الإسلام فارْتَزأتْ ... حتى خَلتْ منه أقطار وبُلدان
فاسألْ بَلَنْسيةَ: مَا شأنُ مُرْسيةٍ ... وأين شاطِبة أمْ أين جَيّان؟
وأين قُرْطُبةٌ دَار العلوم فكم ... من عالم قَد سما فيها له شان؟
وأين حِمْصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرُها العَذْب فياض وملآن

* * *

قواعد كنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبْقَ أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسفٍ ... كما بكى لِفراق الإلف هيمان
على ديارٍ من الإسلام خالية ... قد أقفَرت ولها بالكفر عُمْران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فِيهنّ إلا نواقيسٌ وصُلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابِر ترثي وهي عِيدان

* * *

يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سِنة فالدهر يقظان
وماشِياً مرحاً يُلهيه موطنُهُ ... أبَعْدَ حِمْصٍ تغُر المرءَ أوطان؟
تلك المصيبة أنْست ما تقدّمها ... وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبينَ عتاق الخيل ضامرةً ... كأنها في مجال السبْق عِقبان
وحاملين سيوف الهند مُرهَفةً ... كأنها في ظلام النَّقْع نيران
وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ ... لهم بأوطانِهم عِزٌّ وسلطان
أعِندكم نبأٌ من أهل أندلُس؟ ... فقد سَرَى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرَى فما يهتز إنسان
ما ذا التقاطع في الإسلام بينكم! ... وأنتمُ يا عباد الله إخوان
ألا نُفوس أبيّات لها هِممٌ ... أما على الخير أنصار وأعوان؟

* * *

يا من لِذِلّة قوم بعد عِزّهم ... أحال حالهم جَوْرٌ وطُغيان

بالأَمس كانوا ملوكاً في مَنازلهم   واليومَ هُمْ في بلاد الكُفر عُبدان
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم   عليهمُ في ثياب الذُّلِّ ألوان
ولو رأيت بُكاهم عند بَيْعهمُ   لَهَالَك الأمر واستهوتك أحزان

* * *

يا رُبَّ أمّ وَطِفْل حِيلَ بينهما   كما تُفَرّق أرْوَاحٌ وأبْدانُ
وطفْلَةٍ مِثْلُ حسن الشمس إذ طلعت   كأنما هي ياقوتٌ ومَرْجان
يقُودُها العِلْج للمكْروه مكرَهَةً   والعينُ باكية والقلب حيران

* * *

لمِثل هذا يذوب القلبُ من كَمَدٍ   إن كان في القلب إسلام وإيمان

خاتمة

هذا الكتاب يعطي القارىء صورة مصغرة لفظائع ووحشية ديوان التفتيش، حين كان يقوم باسم الدين المسيحي الذي يبرأ منه المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام، وهي صورة يرى فيها القارىء ما كانت عليه قلوب هؤلاء القساوسة والرهبان من الغلظة والقسوة التي لا تمت إلى الإنسانية بأي صلة، بل إن الوحوش المفترسة لتنفر منها. ويزيد الصورة جلاء ووضوحاً ما وضعناه من الصور الشمسية لبعض هذه المآسي الدامية. وقد صرفنا وقتاً ليس بالقليل في الحصول على هذه الصور من مختلف الكتب وبعضها من مجلة اللطائف المصورة المصرية، التي كانت تصدر بالقاهرة منذ سنوات.



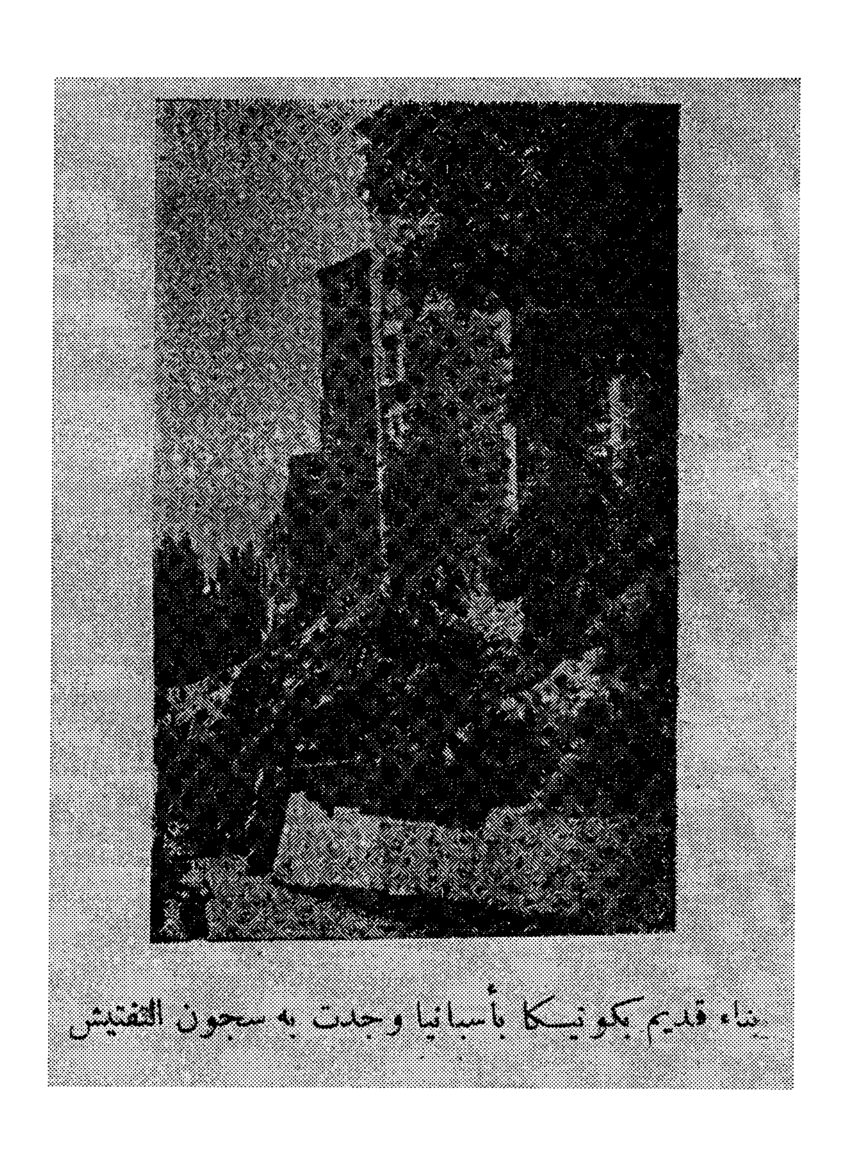
طبيب يفحص إحدى الجثث التي وجدت بالممرات بمدينة كونيكا بأسبانيا



منظر خارجي للسجن تظهر فيه النافذة ويظن أن المحكوم عليهم كانوا يدلون منها إلى الداخل ليموتوا موتاً بطيئاً



منظر داخلي لغرفة سجون التفتيش تظهر فيه جثث بعض الضحايا



بناء قديم بكونيـــكا بأسبانيا وجدت به سجون التفتيش

فهرس الصور الشمسية

المراجع

- تاريخ وفظائع ديوان التفتيش في البرتقال وإسبانيا بقلم جرجي الحداد طبع بسان باولو - برازيل سنة ١٩٢٣.

- ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى تأليف محمد عبدالله عنان المحامي، الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.

— Don Juan Antonio Liorente:

Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne.

(The) Encyclopaedia Britannica (Inquisition)

Henry Ford:

Derinternationale Jude

Henry Charles Lea: The Moriscos of Spain: their Conversion and Expulsion.

Josef Condé: Histoire de la Domination des Arabes en Espagne

(Die) Juedische Encyclopadie

William Prescott: History of Philip the 2 of Spain.

William Prescott: History of Ferdinand and Isabella of Spain

Graetez: Geschichte der Juden.

Dubnov: Geschichte der Juden.

فهرس الكتاب